

الباب الثاني

الأدب الشعبي البيزنطي



### ملحمة ديجينيس<sup>(١)</sup>

#### ( أ ) عرض وتلخيص :

كان يعيش في «قبادوقيا» من أملاك الامبراطورية الرومانية - أمير من أسرة «دوكاس» يدعى «أندرونيكوس». وقد ولد لهذا الأمير من زوجته «أنا» - وهي من أسرة «كيناماد» خمسة من البنين، فكان لذلك يتمنى أن تولد له بنت. ثم ولدت له بنت جميلة سماها «إيرين». وقد تنبأ المنجمون لهذه البنت بأن أميرا عربيا سوف يختطفها حينما تكبر. ومع حرص أهلها عليها ورعايتهم لها كتبت لتلك النبوءة أن تتحقق. فقد حدث أن خرجت «إيرين» في رحلة قصيرة مع خدمها، وكانت إذ ذاك قد بلغت الثانية عشرة من عمرها. وتصادف أن كان الأمير العربي «مصور» - حاكم سوريا في ذلك الوقت - يشن غاراته على حدود الدولة الرومانية. فشاهد الفتاة في رفقة

(١) قمنا بتلخيص الملحمة عن الترجمة الإنجليزية التي قام بها «مافروجورداتو»  
John Mavrogordato: Digenis Akrites Clarendo Press, Oxford, انظر:  
1956.

ومعنى ديجينيس أكريتس AIFENOYE AKRITOI المولد حامى الحدود.  
وقد كان حراس الحدود يتمتعون بسلطة شبه مستقلة. وكانوا ينتشرون على  
الحدود الشرقية والجنوبية للامبراطورية حيث كان الأمن والسلام مهديين دائما.  
(انظر:

Krumbacher: Geschichte der. Byzantinschen Literatur; München 1891.

خدمها وأغرم بها واختطفها. ورجع الخدم بعد أن عجزوا عن استنقاذها منه يحملون إلى الأم النبا المحزن. عندئذ قام أختوتها الخمسة من فورهم ليخلصوا أختهم ولينتقموا من الأمير العربي. ودخل الأخوة على الأمير العربي وهو جالس على عرشه الذهبي وحوله حشمه، فأخذوا بالبهاء والروعة، وأدوا له التحية خاشعين، وأخبروه بأنهم قد جاءوا في طلب أختهم، وأنهم لن يسمح لهم بالعودة إلى بلادهم بدونها. فلما أبتى، جعلوا يتوسلون إليه بأعز ما لديه: بالمسجد في «الرمو»<sup>(١)</sup> وبالصخرة المعلقة<sup>(٢)</sup>، وبقبر النبي أن يبيعهم أختهم بما شاء من ثمن. وأخذ الأمير العربي يصغى إليهم - إذ كان يجيد اللسان الرومي - ثم قال لهم: إن كنتم تريدون خلاص أختكم فاخhtarوا بطلا من بينكم لمبارزتي، فإن أنا غلبته فأنتم عبيدي وإن غلبني أخذتم أختكم. فاخhtarوا أصغرهم وهو قسطنطين - لمبارزته..

واحتشد الجمع لمشاهدة القتال، وإذا بالموقف ينجلي بعد قليل عن انتصار الفارس الرومي. عندئذ اعترف الأمير العربي له بفروسيته، وطلب من الأخوة أن يبحثوا عن أختهم بين سباياها.

(١) مدينة في جزيرة صقلية تقع في الجزء الشمالي منها. وحينما فتح العرب صقلية اتخذوا هذه المدينة عاصمة لهم، ثم هدموا الكنيسة التي كانت تشتهر بها وشيدوا مكانها مسجدا. انظر:

Encyclopaedia Britannica; V. 17, pp. 116-7.

(٢) أنظر: F.W. Haslick: Christianity and Islam under the Sultans; Oxford: 1929, V. 11, p. 395.

فهو يحكى أن هناك في شمال سوريا صخرة مقدسة معلقة بطريقة تبعث على العجب ويقول الناس هناك عنها إن سائلا يخرج منها يشفى أمراض العين..

ولكن الأخوة أتعبوا أنفسهم في البحث عنها دون جدوى. عندئذ أحيرهم أحد الأعراب أن الأمير قد قتل الكثير من الفتيات اللاتي لم يمثلن لأمره، وربما كانت أختهم من بين القتلى. ثم إنه أطلعهم على حشد من أجساد القتلى المتراكمة. فلما رأى الأخوة ذلك أخذوا يصرخون، وذهبوا إلى الأمير العربي وطلبوا منه أن يقتلهم، إذ لم يكن لهم سبيل إلى الرجوع إلى بلادهم بغير أختهم. فلما لمس الأمير مقدار حزنهم سألهم: من أنتم، وإلى أي أسرة تنتمون، وفي أي جند تسكنون؟ «فأجابوه: «نحن نسكن القطاع الشرقي وننتمي إلى أسرة رومانية نبيلة، فأما نتسب إلى كناماد، وأبونا إلى دوкас من عائلة قسطنطين، ولنا من أخواننا وأعمامنا إثنا عشر قائدا. منذ زمن نفى والدنا.. بسبب بعض الحماقات، ولم نكن نحن - مع الأسف الشديد - في بلادنا حين قمت أنت بغاراتك وسبيت أختنا، ولولا ذلك لما استطعت أن تفتح أرضنا. وسواء أكنت تابعا للخليفة في بغداد أو كائنا من كنت فإننا - حين يرجع أقرباؤنا بوالدنا من الأسر - سنبحث عنك أينما كنت، ولن نترك ثأرنا»<sup>(١)</sup>. وهنا قال لهم الأمير: إنني أيها الرجال الطيبون ابن خريزوفيروجس وبانتيا»<sup>(٢)</sup>. جدى لأمي هو أمبرون، وعمي قريصاص. توفي والدي وأنا طفل فسلمتني أُمِّي لأحد أقربائنا من العرب الذي قام بتنشئتي على مبادئ الدين الإسلامي. ولما صرت بطلا بينهم جعلوني حاكما على سوريا بعد أن أعطوني ثلاثة آلاف رجل مسلحين. فأخضعت سوريا والكوفة، وإن كنت لا أريد أن أزهي كثيرا بانتصاراتي. ثم استوليت

(١) الأبيات من ٢٦٥ إلى ٢٨٢.

(٢) في مخطوط «ترايزون» تسمى «بانتيا». (انظر ما فروجورداتو، ص ٣١).

على عمورية وأيقونية<sup>(١)</sup>، ثم قضيت على اللصوص والوحوش، كل هذا صنعته ولم يقف في سبيلي قائد أو جيش. وبالرغم من ذلك أخضعتني امرأة لجمالها وأصبحت أسيرا لها<sup>(٢)</sup>. قال ذلك ووعدهم إن هم زوجوه من أختهم أن يرحل معهم إلى رومانيا ويعتق الدين المسيحي. عندئذ وعده الأخوة بالزواج من أختهم واستعد الجميع للرحيل إلى رومانيا وأطلق الأمير العربي سراح كل الأسرى الرومان. وسعد الأخوة بما حدث، وكتبوا إلى أمهم يخبرونها أنهم قد عشروا على أختهم، وأنهم قد وجدوا لها زوجا أميراً قد ترك دينه الإسلامي واعترف بالدين المسيحي. وختموا خطابهم إليها طالبين منها أن تعد للزفاف عدته. وسعدت الأم بوصول تلك الأخبار إليها وإن ساورها الشك في أن يكون ذلك الأمير العربي متوحشا لكونه وثنيا<sup>(٣)</sup>. ولكن ما أن وصل الجميع إلى رومانيا حتى أقيمت الأفراح وزف الأمير العربي إلى «ايرين». وقد أنجب منها طفلا سماه «ديجينس بازل أكرينس».

وكان من الطبيعي أن تغضب والدة الأميرة موصور من فعلته، وبخاصة أنه كان قد استقر نهائيا في رومانيا. فأرسلت إليه تعاتبه وتؤنبه وتقول له: «لقد

(١) يرى الأستاذ مافروجورداتو أن اسم Iconium اختلط مع اسم البلد Akroinion الذي كان مجالا للحروب العربية البيزنطية، والذي لاقى فيه «السيد البطال» البطل العربي حثفه سنة ٧٤٠م أما بلدة Iconium وهي قونية، فقد شهدت حوادث متأخرة في عهد السلاطين الأتراك سنة ١١٥٩م أي بعد الحوادث التي تحكيها الملحمة البيزنطية بحوالى قرن من الزمان.

انظر: Cambridge Med. His., IV 121.

(٢) الأبيات من ٣٨٩ إلى ٣٩٢، ٣٩٧ إلى ٤٠٩..

(٣) كما أن قصة ذات الهمة تتحدث دائما عن المسيحيين بوصفهم كفارا، فكذلك تصف الملحمة البيزنطية المسلمين بنفس الوصف..

أطفأت النور فى حياتى وأفقدتني بصرى. كيف نسيت يا بنى العزيز أمك وتكرت لأهلك ودينك وبلدك حتى أصبحت سيرتك تلو كها الألسن فى سوريا؟. أنسيت ما فعله أبوك؟ كم قتل من جنود رومانيين وكم حاز عنده من عبيد، وكم سبى من أميرات حسناوات وملأ السجون من الأبطال، ولكنه لم يصنع كما صنعت. وحينما أحاط به جيش الرومان أقسم له القواد بأغلظ الإيمان أن الامبراطور سيجعل منه بطريقا وفارسا عظيما إذا هو ألقى سلاحه، ولكنه أبى وصمم أن يكون النبى رائده، واحتقر كل مجد ولم يأبه بالثورة. عندئذ قطعوه إربا إربا ثم أخذوا سيفه<sup>(١)</sup>. ثم ختمت خطابها إليه تحذره من أن أمراء سوريا قد عزموا على قتل أولاده وسبى زوجته التى تركها فى سوريا ثم ترجوه فى النهاية أن يحضر ويأتى معه زوجته الرومانية إن شاء، وتصف له طريقا آمنا بعيدا عن أعين الرومان ليعود منه..

وحمل الخطاب بعض الأعراب وساروا حتى وصلوا إلى رومانيا. وهناك عند مكان، يسمى «الصخرة الجوفاء» عسكروا بخيامهم وذهب أحدهم ليسلم الأمير رسالته. فلما فض الأمير الرسالة وقرأها قرر أن يذهب ليرى أمه وأولاده وزوجته. ثم دخل على زوجته الرومانية وأطلعها على حقيقة الأمر، وطلب منها أن تصحبه خفية لأنهما لن يطبلا الإقامة فى سوريا. فسعدت الزوجة بمرافقته ولكنها أخبرته بأنه لا بد من اطلاع أخوتها على جلبيه الأمر إذ أن أخواها الصغير رأى حلما فسره مفسر الأحلام، وهم الآن فى انتظار ما قد يحدث. لقد رأى أخواها كأن صقورا تحلق على الصخرة الجوفاء تطارد حمامة، فلما أوت الحمامة إلى مكان تبعها باز حتى صادها. فلما حاول

(١) انظر الأبيات من ٣٩٧ إلى ٤٠٩ من الملحمة..

قسطنطين تخليص أخته ارتعد خوفا ثم استيقظ. فلما قص الأخ الصغير رؤياه على أخوته قرروا أن يرحلوا إلى الصحرة الجوفاء ويرقبوا ما قد يحدث. فلما وصلوا إلى ذلك المكان إذا بهم أمام خيام للأعراب. ولما سألوا الأعراب عن غرضهم لم يكتموهم وأطلعوهم على الحقيقة. وظن الأخوة بالأمير سوءا واعتقدوا أنه بدا ينفذ خطة كان قد أخفاها في نفسه وأنه ينوي أخذ أختهم. والرجوع بها هي وابنها إلى سوريا. فلما رأوا خطاب أمه أطمأنوا، ولكنهم قرروا أن يرحل الأمير بمفرده حتى يعود سريعا.

ثم رحل الأمير بمفرده مع رفقته. وكان يذكر زوجته الرومانية في كل خطوة، وأخذ يقدر الطريق الذي سيقطعه ذهابا وإيابا حتى يرجع إليها. وحينما قابله أسد في الطريق خاطبه قائلا: «وكيف تجرؤ أيها الوحش الخفيف أن تقف في سبيل الحب المشتعل؟»<sup>(١)</sup> ثم هجم على الأسد وقتله وأمر رفاقه أن يخلعوا أسنانه لكي يحتفظ بها لابنه عندما يرجع..

والتقت الأم بابنها بعد غياب طويل، ودار بينهما الحديث عن مغامرات ابنها الأخيرة. وبعد هذا أخذت الأم تذكر ابنها بدينه الذي هجره، وبمعجزات الرسول لعله يرجع إلى الإسلام مرة أخرى. قالت له: «أسمعت يا ولدي في رومانيا بمثل المعجزات التي حدثت عند قبر الرسول؟ أتذكر حينما ذهبت معي للصلاة ذات مرة فإذا بالضياء يشع من على وسط الظلام؟ رأيت هناك ما سمعنا عنه من أن مختلف الحيوانات من أسود وذئاب وخراف ترعى بعضها بجانب البعض حول الرسول حينما كان يؤدي صلاته دون أن يحاول أحدها إيذاء الآخر، حتى إذا انتهى النبي من صلاته انحنت له خشوعا؟..»

(١) أنظر البيتين ٧٣٣ - ٧٣٤ ...

أرأيت معجزات أكبر من ذلك فى رومانيا؟..

السنا نملك منشفة النعمان - الملك الأشورى - الذى كان أهلا لأن تتحقق معه المعجزات لما كان عليه من الفضائل؟<sup>(١)</sup>.

وبعد أن سمع الابن كلام أمه قال لها: «إبنى يا أمى العزيزة على علم

---

(١) يتساءل «هنرى جويجوار» عن منشفة النعمان هذه ويقول: لا بد أنه يقصد بها الصورة المقدسة التى وجدت فى «اديسا». وهى تراث مسيحي ثمين إذ أنها صورة حقيقية للمسيح طبعت على منشفة وجهه. وقد أرسلها المسيح عليه السلام إلى الملك «أيجار» حاكم اديسا. هذه الذخيرة استولى عليها القائد البيزنطى «كوركواس» حينما فتح تلك المنطقة سنة ٩٤٤م وحملها سعيدا بها إلى القسطنطينية..

وهذا الغرض الذى فرضه جويجوار تفسيرا لمنشفة النعمان جعله يجزم بأن الملحمة لا بد أن تكون قد كتبت قبل سنة ٩٤٤م وعلى وجه التحديد بين سنة ٩٣٠م وسنة ٩٤٤م. أما الأستاذ «مافروجورداتو فيرى» أن مؤلف الملحمة الذى كتبها بالقرب من تلك المناطق المذكورة، والذى كان عارفا بما لتلك المناطق من تراث، لا يمكن أن يخلط بين النعمان الأشورى الذى شفاه النبي «اليشع» وبين الملك ايجار ملك اديسا الذى يقال إن المسيح قد أرسل إليه خطابا أرفق به صورته التى طبعت فى منشفة وجهه. ولذلك يرى مافروجورداتو أن قصة المنشفة هذه إنما تتناسب مع قصة النعمان حينما شفاه النبي اليشع من برصه بأن جعله يستحم فى الماء ثم يجفف جسده بمنشفة معينة، فما أن أفعل ذلك حتى شفى..

(انظر مافروجورداتو ص ٣٤، ٣٥ من المقدمة. وانظر كذلك «هسلوك» فهو يشير إلى ذلك الأثر المسيحي فى كتابه «المسيحية والاسلام» ج ١ ص ٣٧. وكذلك أشار ابن حوقل فى كتابه «المسالك والممالك» إلى ذلك الأثر المسيحي فى حديثه عن بلدة الرها. قال: «وكان بها مندبل لعيسى ابن مريم، فخرج تقفور فى بعض خرجاته ونزل بهم وحاصرهم وطالبهم به فسلموه إليه على هدة وافقوه على مدتها. (المسالك والممالك، ج ١ ص ٢٢٦، ط ليدن سنة ١٩٣٨)..

بكل ذلك، ولكن هذه المعتقدات التي كنت أؤمن بها قبل أن اهتدى إلى النور المقدس قد أصبحت أراها ظلمات تستحق أن تمحى. والآن بعد أن أراد الله في عليائه إلى الخير - فنجاني من براثن وحش خبيث، ورأى استحق الحياة من جديد، طرحت جانبا تلك الأفاصيص والخزعبلات.. وكل من يؤمن بهذه الخرافات فجزاؤه العقاب، ولكن من يؤمن بالاله الأعلى رب كل شيء، ويؤمن بالسيد المسيح - ابن الله وكلمته - فإنه لن يهلك أبدا، وإنما تبقى روحه حية إلى الأبد<sup>(١)</sup>. قال ذلك وأخبرها أنه سيرحل إلى رومانيا إذ أن نفسه قد تشبعت بالدين المسيحي، وأنها إذا هي شاءت اهتدت معه ورحلت إلى رومانيا، وإلا بقيت في بلاد الإسلام تنتظر جزاء إيمانها بالخرافات.

عندئذ تأثرت الأم بحديث ابنها وقررت أن ترحل معه إلى رومانيا. وتركت الأم وابنها وحاشيتهما أرض سوريا ورحلوا إلى «قبادوقيا». وهناك استقبل الابن زوجته قبلها واحتضن طفله ولسانه ينطق بمشاعره إذ يقول له: «متى تنشر جناحيك يا نسرى الجميل فتخضع الخارجين وتقضى على المحتالين»<sup>(٢)</sup>.

وكبير الطفل ديجنيس وبلغ الثانية عشرة من عمره. وسرعان ما أحس بطاقة من الحيوية والشجاعة كانت تدفعه دائما لأعمال البطولة، فأراد أن يخرج إلى الأحراش ليصارع الوحوش المفترسة. وقد حذره أبوه من ذلك

(١) الملحمة، الأبيات ٧٩٧ - ٨٠٠، ٨٠٣ - ٨٠٥، ٨٠٨ - ٨٠٩، ٨٣٢.

(٢) الملحمة، البيت ٩٤٤.

خوفا عليه وقال له: «لا تحاول أن تقطف زهرتك الجميلة قبل أوانها»<sup>(١)</sup> عند ذلك رد عليه ديجنيس قائلا: «إذا كنت اعتمد على مشيئة الله خالق كل شيء، وإذا كانت توارزني صلوات أمي وأبي، فإنك سترى الأسد مقتولا بجانب الذئبين»<sup>(٢)</sup>.

ولقى ديجنيس الأسد وقتله وألقاه طريقا بجانب الذئبين اللذين كان قد قتلها من قبل. وعند ذلك غمره والده وخاله ومن كان معهم بالقبيلات، ثم ذهبوا جميعا إلى نبع بارد وغسلوا لديجنيس وجهه ويديه ورجليه، وأخذوا يشربون بعد ذلك من مياه النبع الجارية<sup>(٣)</sup>.

وسمع «أكريتس» برعاة الأغنام الموصوفين بالشجاعة، وعزم على مقابلتهم وإظهار شجاعته لهم حتى يخشوا صولته فيكفوا عن تهديد أمن الدولة<sup>(٤)</sup>. وفيما هو سائر إليهم إذ قابل أحدهم يحمل قربة ماء فسأله عن أولئك الرعاة فأجابته الرجل: «وماذا تريد منهم أيها الشاب الطيب؟» فرد على ديجنيس قائلا: «إنني أريد أن أكون واحدا منهم»<sup>(٥)</sup>..

(١) الملحمة، البيت ١٠٦٨.

(٢) الملحمة، الأبيات ١١٥١ - ١١٥٣.

(٣) من تقاليد الرومان أنهم كانوا يشربون من المياه التي يغتسل بها البطل حتى يقتسموا معه شجاعته. (انظر مافروجورداتو ص ٧٨).

(٤) الاسم اليوناني الذي يطلق على جماعة رعاة الأغنام هؤلاء هو: Apelaten وقد اختلف في معنى اللفظ، فالبعض يقول إنهم جماعة من الرعاة كانوا ينتقلون على حدود الدولة والبعض الآخر يصفهم بأنهم قطاع طرق. (انظر:

Krumbacher: Geschichte der byzantinische Literature; 2 Auflage, München 1897, S. 832.

(٥) الملحمة، الأبيات ١٢٦٢ - ١٢٦٥.

عند ذلك قاده الرجل إليهم فإذا به أمام رئيسهم «فيلوبابوس» وهو يجلس في مقعده الوثير ملتفا بجلود الحيوان. ولما عرض عليه ديجنيس أن يقبله واحدا منهم، أجابته الرجل بأنه يرحب به إذا هو استطاع أن يقوم بواجب الحراسة خمسة عشر يوما لا يتناول فيها طعاما ولا يذوق فيها طعم النوم. فرد عليه ديجنيس بأنه قد قام بتلك الأعباء وهو صغير وأنه يريد مهمة أشق، كمبارزة رجاله مثلا..

وخرج إليه رجال فيلوبابوس فغلبهم، وبعد ذلك نازل زعيمهم فغلبه كذلك. عند ذلك شهدوا له بالبطولة وصاروا يخشون سطوته..

ولم تكن مغامرات ديجنيس في الحب تقل عن مغامراته الأخرى في الجرأة والشجاعة، فبينما كان يمر ذات يوم ببيت القائد الذي كان يقع في طريقه لمح ابنة القائد الجميلة من خلال النافذة فوقف يخاطبها. ورأته الفتاة بما هو عليه من جمال ورجولة فأغرمت به. وأخذ ديجنيس يخاطب الفتاة كلما مر ببيتها. وقد حذرت ذات مرة من سطوة والدها، ولكن العاطفة القوية لا تخشى شيئا، بخاصة إذا تدفقت من قلب بطل لا تقف في سبيله العقبات. فما أن سمع تحذيرها حتى سخر منها وأخبرها أن رماح أبيها وسهامه لا يمكن أن تنفذ إلى قلبه. ثم رجاها أن تجود عليه بنظرة، فاقتربت من النافذة فإذا بتورها يملأ المكان، ولاح له وجهها كأنه صورة أبدعتها يد فنان. ثم ألقت إليه بخاتمها فالتقفه مسرورا وتواعدا على اللقاء في الغد..

وفي السحر، وقبل أن يختفى القمر من السماء حمل ديجنيس قيثارته وذهب ليلقى فتاته. ولما وصل إلى نافذتها وجد النور مطفأ، فعزف على قيثارته حتى يوقظها فاستيقظت ونظرت إليه من النافذة تعنفه على جرأته،

فغضب لقولها ورد عليها: «أنتى أدرك يا سيدتى النبيلة سر قلقك. إنك تخشين حدوث ما لا تحمد عقباه، ولكنك تجهلين شخصى وأعمالى. ولو أنك كنت على علم بذلك لكففت عن ذكر أبيك وأخوتك، وكيف أنهم سيلحقون بى الأذى ويلحق بك حينئذ الأسف. لقد حاربت وحدى جيوشا وهزمتها وانتصرت على أبطالها.. إن كل ما أود أن أسمع منك هو ما إذا كنت تحبيننى وتودين متابعتى قبل أن تشرق الشمس. أما إذا كنت مغرمة برجل آخر فكفى عن تلك المعاذير»<sup>(١)</sup>.

عند ذلك خلجت الفتاة وأفصحت له عن عاطفتها نحوه وأخبرته بأنها تريد أن تتبعه إلى حيث شاء. وسعد البطل بقولها ولكنه لمس منها الحيرة والرغبة فى التحلل من وعدها. وأراد أن يطمئنها فقال لها: «حبيبتى، إننى على علم بما تكابدن من حياة، أعنى تلك الثروة الطائلة التى يمتلكها أبوك والتى يسعى إليك النبلاء من أجلها. أما أنا يا عزيزتى فلا أهداف إلى ثورة ولا أسمى وراء شهرة، وإنما أنا غنى بجمالك. فمن اللحظة التى وقع فيها نظرى على عينيك السوداوين وأنت لم تفارقينى ساعة واحدة.. فتعالى معى يا عزيزتى، وأقسم لك أنك ستعيشين فى سعادة كاملة. وسوف يسر والدك حينما يعلمان أى رجل كسبه لابنتهما»<sup>(٢)</sup>. فردت عليه الفتاة قائلة: «إننى وأنا أترك بيتى وأخوتى ووالدى أضع ثقتى فىك، والله يشهد ما تعهدت به من أنك لن تغضبنى، وأنتك ستخذنى زوجة لك مدى الحياة»<sup>(٣)</sup>.

(١) الأبيات: ١٥٣٦ - ١٥٤٢، ١٥٤٩ - ١٥٥٢، ١٥٥٤ - ١٥٥٥.

(٢) الأبيات: ١٦١٣ - ١٦١٩، ١٦٢٦، ١٦٢٩ - ١٦٣١.

(٣) الأبيات: ١٦٤٩ - ١٦٥٢.

قالت ذلك وبسطت إليه يديها فالتفتها وهو راكب فرسه وحملها معه .  
ولكنه قبل أن يرحل بها هتف بأعلى صوته قائلاً: «باركنى أنا وابنتك  
يا سيدى الوالد، ثم اشكر الله أن يكون مثلى زوجا لابنتك»<sup>(١)</sup>. ثم ولى  
بفرسه مسرعا.

واستيقظ القائد وزوجته وكل من فى البيت على صوت هتافه . وأبصر  
القائد خيالهما على بعد فصرخ بأعلى صوته: «لقد فقدت نور حياتي»<sup>(٢)</sup>.  
وصرخت الأم وخرجت الأخوة تتعجب من ذلك الجرى الذى اختطف  
أختهم.

وأسرع الجميع بإرسال جيش وراء ديجنيس . واقترب منه الجيش وهو  
بالقرب من شجرة، فوضع محبوبته فى أعلى الشجرة واستعد للقتال . وفى  
ساعات قليلة كان الجيش كله مضرجا بدمه . وبعد قليل كان القائد  
والأخوة قد لحقوا بالجيش فحذرت الفتاة من أن يتصدى لهم . فما أن اقتربوا  
من ديجنيس ووقعت عين القائد عليه حتى عرفه . حينئذ ألقى القائد  
سلاحه وقبل ديجنيس وابنته وهنأهما، وطلب من ديجنيس أن يرجع معه  
إلى قصره حيث يعلن على الملأ نبأ خطبة ابنته، وحيث يحتفلون بالزفاف .

واستقر ديجنيس مع زوجته على الحدود ليقوم بحمايتها من المتغيرين  
ومن الخارجين على الدولة . وكان يقيم هو وزوجته فى خيمة، فى حين  
كان رجاله يعيشون فى خيام بعيدة عنهما . ولم يكتف ديجنيس بصد غارات

---

(١) البيتان: ١٦٧٣ ، ١٦٧٤ .

(٢) البيت ١٦٧٩ .

المعيرين، وإنما استولى كذلك على بابلين وطرطوس وغير ذلك من الجهات التي كان يسكنها السود الخفيفون. وحينما سمع الامبرطور «بازل»<sup>(١)</sup> بذلك النصر أرسل إلى ديجنيس خطابا يطلب فيه مقابله لكي يكافئه على أعماله. وقد رد عليه ديجنيس بخطاب آخر يعلن فيه استعداداه لخدمة الملك والامبراطورية، ولكنه يأسف لعدم تمكنه من مقابله، لأنه يخشى أن يسمع ما لا يرضاه من رجال قصره، وحينئذ لن يتوانى عن قتلهم.. وقد أخبر الامبراطور بأنه سيرحل إلى شاطيء الفرات، وأنه سينتظره هناك. وركب الامبراطور إليه وباركه ووعدته بأن يرد إليه أملاك جده<sup>(٢)</sup> التي كانت قد انتزعت منه. ثم عينه حاكما رسميا على حدود الامبراطورية البيزنطية.

ولما كان الشباب كثيرا ما يملأ الإنسان بالغرور فيورطه، فإن بطلنا قد تورط في نفس الخطأ. وهو يعترف بذلك نادما حينما باح بسره لأحد سكان قبادوقيا قائلا له: «لقد رغبت في أن افترق عن والدي وأن أعيش بمفردى عند الحدود. وخرجت ذات يوم للتسرية عن نفسي وتوغلت في سوريا وكنت حينئذ في الخامسة عشرة من عمري حتى وصلت سهلا من السهول العربية. ثم أمعنت في التوغل وأنا راكب فرسى وماسك برمحي. ثم شعرت بعطش شديد فأخذت أبحث عن ماء. وعلى بعد لمحت شجرة عند

---

(١) الراجع أنه يشير إلى بازل الثاني (٩٦٠ - ١٠٢٥م) الذي اشتهر بإخضاع الثائرين على الحدود.

(٢) يعنى جده لأمه وهو دو كاس الذي خطف موصور العربي ابنته وتزوجها. وفي هذا ما يشير إلى ما ذكره أخوة إيرين للأمير العربي في أول الملحمة، من أن أباهم كان قد نفى. ومنشير إلى ذلك مرة أخرى في تحقيقنا لحوادث الملحمة.

مستنقع كبير فأسرعت إليها بفرسى. ووجدتني لم أخطيء، إذ كانت هناك نخلة بجانب ينبوع ماء. وما أن اقتربت من الماء لأروى ظمئي حتى سمعت أنينا ينبعث من فتاة جميلة. عند ذلك انتابني الذعر واقشعر بدني، إذ اعتقدت أنني أمام جنية، فقد كان المكان مهجورا، كثر فيه العشب. فانتزعت سلاحى، ولكن الفتاة حينما رأتني انتفضت وهبت واقفة ولفت نفسها فى خجل برادئها ثم أخذت تمسح دموعها وحدثتني قائلة: من أين جئت وإلى أين تسير وحيدا أيها الرجل الطيب؟ يبدو أن الله قد هدانا إلى هنا لكي نتقذنى من شقوتى فى هذه الصحراء<sup>(١)</sup>، عند ذلك طمأنها ديجنيس حتى هدأ روعها. ثم أخذت الفتاة تحكى له قصتها فقالت: «لا بد أنك سمعت هن «هابلورابدر» أمير الجميع. إنه أبى، وأمى «ميلانتيا»، ونحن من ميفارقين<sup>(٢)</sup>. وقد حدثتني وقعت فى حب روماني كان أبى قد أسره مدة ثلاث سنين، وكان يدعى أنه ابن قائد شهير. وذات مرة كان أبى غائبا فى الحروب كما هى عادته فتمكنت من أن أحل قيده وأخرجه من السجن وأعطيه الخيل واجعله يحكم سوريا. وازداد حبه لى.. وقررنا أن نهرب ذات يوم إلى رومانيا، إذ كان يخشى رجوع أبى. وبعد أن أقسم لى بأغلظ الأيمان أنه سيتزوجنى أخذت أتحين الفرصة لسلب ثروة كبيرة من أهلى حتى أهرب معه. ومرضت أبى فى ذلك الوقت وأشرفت على الموت، فسلمت أشياء ثمينة، وخرجت مع صديقى الخائن حتى وصلنا إلى هذا النبع الذى تراه ومكثنا فى هذا المكان ثلاثة أيام وثلاث ليال. وبينما نحن

(١) الأبيات ٢١٩٣ - ٢٢٢٠.

(٢) ميفارقين إحدى بلدان الحدود التى عانت من الحروب الكثيرة بين العرب والروم فى عصر سيف الدولة.

نائمان فى الليلة الثالثة إذ استيقظ صديقى خفية وأعد الخيل وأخذ ما كنت قد أحضرته معى من أشياء ثمينة. فاستيقظت مذعورة من نومى وأخذت أعد نفسى كذلك للرحيل معه، وكنت قد خرجت متخفية فى ثياب رجل. وإذا بصديقى يتمطى جوادا ويمسك بعنان الجواد الآخر ويولى مسرعا. وفوجئت بما حدث وخرجت وراءه أستغيث به<sup>(١)</sup>.

وكانت الفتاة تبكى وهى تقص قصتها، وإذا بجماعة من الأعراب يبلغ عددهم المائة وكلهم مدججون بالسلاح يقتحمون جلستهما كما يقتحم الأسد على فريسته. وفى سرعة خاطفة امتطى ديجنيس صهوة جواده. وهاجمهم وقتلهم جميعا. عند ذلك تعجبت الفتاة من شجاعته وتأكدت أن الشاب الذى يقف بجوارها هو بطل الحدود. ثم إنه حملها على فرسه ورحل بها إلى سوريا.

ولم يستطع ديجنيس أن يقاوم إغراء الفتاة طوال الرحلة، فارتكب معها إثما فى غفلة من نسيانه لزوجته. ولما علم أنه قد زاد من متاعها بما ارتكبه معها حاول أن يخفف عنها، فراح يبحث عن صديقها حتى وجده، وجاء به إليها وأمره أن يأخذ الفتاة ويتزوج منها زواجا شرعيا ويرد إليها ثروتها، فإن هو أبى محا أثره من الوجود. ولم ينس ديجنيس أن يعرفه بشخصه قبل أن يرحل عنهما.

---

(١) الأبيات ٢٢٣٨ - ٢٢٤٩، ٢٢٥٢ - ٢٢٦٢، ٢٢٦٧، ٢٢٨٣ - ٢٢٨٤،  
٢٢٨٩ - ٢٢٩٨.

وأخذ ضمير ديجنيس يعذبه على ما أرتكب من إثم وخيانة لزوجته، ورجع إليها وآثار الخزي والندم بادية عليه. وأدركت الزوجة الأمر، واعترف ديجنيس لها، ثم قرر معها أن يتركا المكان الذى كانا يعيشان فيه حتى لا يقابل الفتاة العربية مرة أخرى فتذكره بفعلته معها.

وفى ذلك المكان الجديد بدأ ديجنيس وزوجته يستمتعان بما فى الحياة من جمال: جمال الربيع، وجمال الحب، وجمال الوحدة. ثم إنهما اختارا مرجا من المروج الخضراء ونصبا خيمتهما بجواره. وذات يوم أحست زوجته العطش، فذهبت لترتوى من نبع مجاور لهما. ولم تكد تقترب من النبع حتى شق جوف الماء ثعبان لم يلبث أن تحول إلى رجل مخادع، ولكنها لم تخذع به. ولما حاول الاقتراب منها صرخت تنادى زوجها، فأدركها لتوه وقتل الوحش المفترس الذى أراد أن يفسد جمال حياتهما. وكما قتل الثعبان قتل غيره من الوحوش المفترسة حتى أصبحت الوحوش تهاب ذلك المكان ولم تعد تقترب منه.

ثم ظهر نشاط قطاع الطرق على الحدود وعلى رأسهم الثلاثة المشاغبون: فيليبوس وكيناموس وايناكس. فبينما كان هؤلاء يستطلعون الأمور على بعد ميل من خيمة ديجنيس إذا بهم يسمعون صوت غناء زوجة ديجنيس يدوى فى الفضاء، فى حين كان ديجنيس يعزف لها على قيثارته. عند ذلك ذهب أحدهم يستطلع الأمر فرأى الزوجة وما هى عليه من جمال، فذهب وأخبر رفيقيه بالأمر وقرروا اختطافها. ولم يكونوا على علم بحقيقة زوجها. عند ذلك أرسلوا جماعة من رجالهم يبلغ عددهم خمسة وأربعين ليفاجئوا ديجنيس ويختطفوا الزوجة. ولكن ديجنيس - الذى كان

على استعداد دائم لصد غارات المشايخين على الحدود - قابلهم بمفرده وقتلهم عن آخرهم، وألقى بجثثهم بعيدا فى الصحراء. ولما طال غياب الجماعة عن فيليباوس ورجاله رحلوا بأنفسهم ليستطلعوا الأمر فوجدوا ديجنيس يجلس فى هدوء مع زوجته وما من أثر للقتال عليه، إذ كان قد اغتسل فى نهر الفرات بعد المعركة، ولما سألوه عن جماعة يبلغ عددهم خمسة وأربعون كانوا يتجولون بالقرب منه، أشار إلى جثث القتلى. وأدرك المغيرون عندئذ ما حدث، ونظر بعضهم إلى بعض متسائلين عما إذا كان الشخص الذى يخاطبهم هو حامى الحدود. ثم طلبوا من ديجنيس أن يدخل معهم فى مبارزات فردية وخذلوا جميعا أمامه. ولما رأوا الأ سبيل إلى استعمال القوة معه حاولوا التفاهم معه سليما. فأخبروه أنهم سيكونون له أتباعا إذا هو انضم لصحبته. وهنا ابتسم ديجنيس وأجاب متحدثهم فى لهجة ساخرة حازمة قائلا: «إذا كنت قد ختمت حياتك بهذه التوبة وهذا التذلل يا فيليباوس فقم واصطحب أصدقاءك وارحل إلى حيث تريد، فإنك لن تغيب عن عيني حينما كنت. أما إذا كنت تسعى إلى أن انضم إلى رقتك فإننى أخبرك بأننى غير راغب فى هذا. إننى أريد أن أعيش وحيدا، وليس الوصول إلى الرئاسة من أطماعى. فأحكم أنت بنفسك، وليساعد بعضكم بعضا، وقم بغاراتك ما لقيت ذلك ميسرا...! فإذا أردت محاربتى بعد ذلك فاختر نخبة أخرى من الرجال لم يسبق لهم تجربتى لمقاتلتى، إذ لم يعمل معك من سبق أن اشتبك معى فى قتال»<sup>(١)</sup>..

وسعد فيليباوس وأصحابه بأن بطل الحدود قد تركهم أحرارا ثم أنهم

(١) انظر الملحمة: الأبيات ٢٧٤٥ - ٢٧٥٥.

انتحوا ناحية وأخذوا يتداولون فيما بينهم. وسلم بعضهم بأن ديجنيس يمتلك قوة غير عادية، فلا بد أنه ساحر. وأنه يعمل بالتعاون مع قوى خفية<sup>(١)</sup>. ولكن فيليباوس لم يسلم معهم بذلك، وعزم على مجالدته حتى يهزمه. وكانت لفيليبابوس قرية تدعى «مكسيمو»<sup>(٢)</sup> تشتهر بالفروسية فأراد

(١) يرى مافروجورداتوا أن السحر والإيمان بالأرواح كانا منتشرين في الدولة الرومانية الشرقية في القرن التاسع الميلادي، وكان لهما تأثيرهما في خيال الشعب (انظر مافروجورداتو ص ١٨٢). ونحن نرى أن قصة المشاغبين الثلاثة قد تأثرت بقصة شبيهة لها كانت تسيطر على خيال الشعب البيزنطي وتتصل بمعتقد هذا الشعب الروحية. وتقول هذه القصة - كما أوردها «بيوري» - على نحو ما كان الشعب يؤمن بها: «ان ثلاثة من المشاغبين كانوا يهددون أمن الدولة في عهد الامبراطور «تيوفيل» (٨٢٩ - ٨٤٢). وقد عجز الامبراطور عن قهرهم فاستعان بسحر يوحنا النحوي الذي كان يشتهر بأعمال السحر في ذلك الوقت. وقد أشار إليه يوحنا أن يصنع ثلاثة تماثيل ويأمر بوضعها في «الهدروم» (ميدان اللب الكبير في الامبراطورية البيزنطية) بين التماثيل الأخرى ويأمر ثلاثة من أقوياء عصره أن يضربوا التماثيل بالفؤوس، في الوقت الذي يتلو فيه يوحنا بعض التراتيل السحرية. وفعل الأمبراطور ذلك وضربت التماثيل بالفؤوس وتحطم اثنا منهم وتهشم الثالث. وفي الصباح عشر على اثنين من المشاغبين قتيلين والثالث مجروحاً. ولم يكن ذلك إلا بفضل سحر يوحنا كما كان الشعب يعتقد. (انظر:

(Bury: History of the Roman Empire; London 1912, P. 443.

(٢) تذكر الملحمة أن مكسيمو هذه من نسل نساء الأمازون اللاتي أحضرهن الاسكندر معه من الهند (انظر الملحمة الأبيات: ٢٨٤٧ - ٢٨٤٩). وقد ورد ذكر هؤلاء النسوة في الاسطورة الاغريقية على أنهم يمثلن شعباً نسائياً محاربا كان يسكن آسيا. ولم يكن هؤلاء النسوة يتصلن بالرجال سوى مرة في العام. وقد حاولن عن طريق حروبهن أن يتخذن «أتيكا» (شبه جزيرة في بلاد اليونان تقع في الجنوب الشرقي منها) وطناً لهن. (انظر:

Der neue Brockhaus; Wiesbaden 1960, B. 1, SS. 64-5.

أن يستعين بها وبرجالها لقهر ديجنيس دون أن يطلعها على حقيقة ما حدث حتى لا تسخر منه وتأبى مساعدته..

واستعدت مكسيمو لمساعدته، ووضعت فرقتها وعلى رأسها «مليمتزس»<sup>(١)</sup> تحت امرته، كما أنها رحلت بنفسها معه. وقد اتفقوا فيما بينهم على أن يعبر «فيليبابوس» النهر مع اثنين من رجاله، في حين تنتظر مكسيمو مع رجالها على الشاطئ الآخر إشارة منه..

وقد حدث أن كان ديجنيس ينتظر على صخرة عالية ممتطيا صهوه جواده - إذ كان يتوقع هجوما منهم - فرأى بحدة نظره فيليبابوس مع مليمتزس يشيران إليه ويحاولان أن يختفيا عن نظره. فما أن لمح مليمتزس ديجنيس بمفرده حتى تعجب من فيليبابوس لطلبه معونة مكسيمو ورجالها، وأخبره بأنه لو استدعى سيده لمساعدته على مبارزة فارس واحد، لم تثق في شجاعته. وفي لحظة ظهر مليمتزس أمام ديجنيس. وقبل أن يتحرك الأخير نحوه رماه مليمتزس بسهم لم يصبه. وأعقبه ديجنيس بضربة الفته على الأرض صريعا. وأراد فيلبابوس أن يلحق بالمعركة ويضرب ديجنيس من الخلف. واستطاع في الواقع أن يضرب أرجل فرسه، ثم ولى مسرعا. عند ذلك صاح به ديجنيس قائلا: «لماذا تفر؟ ابق في مكانك وقابلني وجها لوجه إن كنت جنديا حقا، ولا تقضمني هكذا خلسة كالجرى الأرعن»<sup>(٢)</sup>

(١) يرى مافروجورداتو أن هذا الأسم يشير إلى جماعة كانت تسمى Melemenji وهم من الهراطقة، وكانوا يسكنون أدنة وطرسوس. (أنظر: مافروجورداتو ص ١٨٩).

(٢) الأبيات ٢٩٧٥ - ٢٩٧٨.

ولكن فيليبابوس استمر في عدوه حتى عبر النهر قاصدا مكسيمو وجماعتها الذين كانوا يقفون منتظرين إشارة منه. وأراد ديجنيس أن يلحق به، ولكنه لمح كثرة الرجال على الشاطئ الآخر واستعدادهم التام للقتال. عند ذلك رحل مسرعا كي يخفى زوجته في مكان بعيد، ويستبدل بفرسه فرسا آخر، ويحمل سلاحه. ثم أنه عاد ليعبر النهر إليهم. وفي ذلك الوقت التفتت مكسيمو إلى فيليبابوس وسألته عن البطل الذي جاءوا لقتاله، فأجابها بأنه هو ذلك الذي يعبر النهر إليهم. فسألته مرة أخرى: «وأين جنوده؟» فأجاب: «إنه ياسيدتي في غير حاجة إلى من يعاونه، لأنه يثق في شجاعته التي لا تقهر» فقالت: «وهل أتكلف أنا ورجالي الحضور من أجل رجل واحد؟ سأذهب لألقيه بمفردي معتمدة على عون الله، وسأتيك برأسه».. قالت ذلك ودفعت بفرسها في النهر<sup>(١)</sup>.

عند ذلك صاح ديجنيس بها وقال لها: «لا تعبري النهر يا مكسيمو إن الرجال هم الذين يذهبون إلى النساء. سأحضر أنا إليك كما يقضى بذلك الواجب»<sup>(٢)</sup>.

ولم تمهله مكسيو حتى يتم كلامه ورمته بسهم لم يصبه. ولم يرض ديجنيس أن يقذفها بسهامه، واكتفى بأن كسر سيفها وأصاب فرسها، ف وقعت على الأرض وهي تصرخ.

«لا تقتلني أيها الفتى الفارس»<sup>(٣)</sup>.

(١) الأبيات ٣٠٢٠ - ٣٠٢٣، ٣٠٢٦ - ٣٠٢٩.

(٢) الأبيات ٣٠٣٠ - ٣٠٣٢.

(٣) البيت ٣٠٥٢.

واحترم ديجنيس نداءها، وأشفق على جمالها، وتركها. وأراد الآخرون طعنه من الخلف فأدركهم وانتصر عليهم فولوا هاربين. ثم أتته مكسيمو تسلم عليه وتحببى شجاعته ولكنها لم ترض أن تنسحب مخذولة، فأنفقت معه على العودة إلى المباراة. ووعدها ديجنيس بالانتصار وتقابلا وتبارزا وغلبها. ولم يكن فى وسع مكسيمو سوى أن تسلم إليه نفسها وهى تقول له: «سيدى.. أصفح عنى.. لقد أخطأت التقدير. ولنكن صديقين إذا كنت لا تستكف ذلك. إننى ما زلت عذراء، لم يمسنى بشر، فاتخذ منى زوجة لك ورفيقة ضد أعدائك<sup>(١)</sup>..»

فأجابها ديجنيس: «اننى لن أقتلك يا مكسيمو، ولكننى لن أتخذ منك زوجة. اننى زوج وأحب زوجتى، ولن أتهاون فى حق هذا الحب<sup>(٢)</sup>. ثم إنه ودعها وانصرف وهو يخشى أن يقع فى شراكها..»

وعاد إلى زوجته وأخذها من الكهف الذى كانت تختبئ فيه، ونزلا مرة أخرى إلى شاطئ الفرات لكى يستمتعا بجمال الروحانى بعد ذلك النضال الطويل. ثم انه ضرب خيمته على شاطئ النهر الذى أحب المقام بجانبه..»

ثم قرر ديجنيس أن يبنى قصره على شاطئ الفرات وأن يجعل الحدائق تحيط بهذا القصر فتم له ما أراد. وكانت تناسب حول القصر جداول تنبع من النهر الخالد، نهر الفرات، الذى قضى بجانبه محافظا على أمنه. وفى هذا القصر، وبجانب الفرات، عاش الزوجان بين أصدقاء من الموسيقى متنوعة، مصدرها خريز المياه وغناء الطيور وهسهسة الطبيعة الخافتة. ولم يكد

(١) الأبيات ٣٢٢٧ - ٣٢٢٩.

(٢) الأبيات ٣٢٣٢ - ٣٢٣٥.

هذا القصر يتم وتستقر لديجنيس السيادة فى تلك المنطقة حتى أخذت الوفود من أقرباء أبيه تفد إليه من «آمد» لزيارته، فكانت تمضى فى أحضان تلك الطبيعة الساحرة أياما بين الصيد والتجول..

ثم بلغت ديجنيس أبناء مرض أبيه الأمير موصور الذى كان قد استقر فى قبادوقيا، فرحل إليه مسرعا وبقي بجانبه حتى صعدت أنفاسه الأخيرة. وقد حمل جثته معه لكى يدفنها فى أرض الفرات. ثم أخذ معه أمه - ابنة دوكاس - التى لم تلبث أن لحقت بأبيه ولم تطق الحياة بديجنيس بعد ذلك كثيرا، فقد فارق الحياة وهو شاب فى الثلاثين دون أن يترك وراءه ولداً يخلفه.

لقد حقق بدجنيس أملا عريضا كان يراوده أبدا ويراود من سبقه من الأبطال. هذا الأمل هو نشر الهدوء والطمأنينة فى منطقة الفرات التى لم تنعم بالهدوء والسلام قرونا طويلة. على أن هذه المنطقة لم تتخلص على يديه من الحروب فحسب، ولكنها تخلصت كذلك من المشاعبين الذين طابت لهم حياة السلب والنهب، فضلا عن الوحوش المفترسة التى كانت ترتع فى مروجها.

لقد شيد ديجنيس قصر السلام على نهر السلام. وما أن تحقق حلمه حتى مضى وترك قصره علما للسلام على النهر الخالد.

\*\*\*

### الملحمة .. دراسة وتحليل

ظلت ملحمة «ديجنيس أكرتيس» مجهولة للباحثين حتى منتصف القرن التاسع عشر. ففي ذلك الوقت بدأ دارسو تاريخ العصور الوسطى بوجه عام، والفترة البيزنطية بوجه خاص، يشتغلون بالتراث الأدبي البيزنطي الذي كان قد بدأ يظهر لأول مرة. وكان أول ما نشر من ذلك التراث مجموعة من الأغنيات أطلق عليها اسم «الدائرة الأكرتية»<sup>(١)</sup>. وفي عام ١٨٧٥ عشر على مخطوطة في «ترايبزون» تتضمن ملحمة ديجنيس أكرتيس. وقد قام بنشر هذه الملحمة لأول مرة «ساتاس» و«ليجران»<sup>(٢)</sup>. وبعد ذلك ظهرت لهذه الملحمة مخطوطات ست:

المخطوط الأولى تنسب إلى «أندروس» في اليونان وتحتفظ بها المكتبة

---

(١) أول من أطلق هذا الاسم على تلك الأغنيات ساتاس وليجران في مقدمتهما للمحمة ديجنيس أكرتيس. والأغنيات في مجملها تمجد بطل الحدود (لفظة أكرتيس Akpitoي معناها الحدود). وسنشير إلى هذه الأغنيات في الكلام عن أصل الملحمة انظر:

Sathas et Legrand: Les Exploits de Digenis Akritas; Epopée Byzantine du Dixième Siécle, Paris 1875.

Ibid. P. XIII.

(٢)

الوطنية فى أئينا. وقد تبين أن هذه المخطوطة أتم فى نصوصها من مخطوطة ترايزون.

والمخطوطة الثانية عشر عليها فى دير يونانى فى «جروتافيرانا» بالقرب من «فرسكانى» سنة ١٨٧٩ ..

والمخطوطة الثالثة عشر عليها ناقصة فى مكتبة الأسكوريال بمدريد. والمخطوطة الرابعة تحمل اسم كاتبها الذى فرغ من كتابتها سنة ١٦٧٠م وتحتفظ بها جامعة أكسفورد.

والمخطوطة الخامسة ناقصة تماما، وقد عشر عليها فى روسيا. وكل هذه المخطوطات قد كتبت شعرا.

أما المخطوطة السادسة والأخيرة فقد كتبت فيها قصة الملحمة نثرا، وقد عشر عليها فى أندروس كذلك، وتحتفظ بها مكتبة قسم الفولكلور فى جامعة «سالونيك»<sup>(١)</sup>.

ومنذ أن نشرت ملحمة ديجنيس أخذت جهود الباحثين تنصرف إليها. وتعد الدراسة التى قام بها ساتاس وليجران لهذه الملحمة أول مرحلة فى ذلك الطريق. وكان آخر ما ظهر من أبحاث حول هذه الملحمة - فيما نعلم - هو البحث الذى كتبه الأستاذ «كريباكيدس» والذى ألقاه المؤتمر البيزنطى الذى عقد فى مدينة ميونيخ بألمانيا سنة ١٩٥٧. وخلال هذه الفترة ظهرت أبحاث

(١) اقرأ تفصيلات أكثر عن هذه المخطوطات فى كتاب موفروجوراتو:

Digenes Akrites, P. XV- XXIX.

كثيرة مسهبة حول الملحمة. وربما لم ينل أثر من آثار الآداب البيزنطية من الاهتمام قدر ما نالته هذه الملحمة. والسبب الأول والأخير لهذا، يرجع إلى ظهور الروح الإسلامى واضحا جليا جنبا إلى جنب مع الروح المسيحي فى هذه الملحمة، الأمر الذى لفت أنظار الباحثين وأثار اهتمامهم.

والمخطوطة التى حققها ونشرها مافروجورداتو هى مخطوطة جروتافيرنا، وتعد أقدم المخطوطات، ويرجع تاريخ كتابتها إلى القرن الرابع عشر الميلادى. وتتميز هذه المخطوطة عن غيرها من المخطوطات بأن الطابع الإسلامى فيها واضح ومعرفة الكاتب بالمعجزات التى يؤمن بها المسلمون أوضح وأكبر. ثم إن لغة هذه المخطوطة - فيما يرى الباحث - ترجح أنها «ألفت» فيما بين القرنين العاشر والرابع عشر الميلادى<sup>(١)</sup>.

ويمكن تلخيص المشكلات التى أثارها هذه الملحمة للبحث فى نقاط ثلاث: أولا - صلة الملحمة بالتاريخ، وثانيا أصل الروح الإسلامى العربى الذى يظهر فى الملحمة بشكل واضح، وعلى وجه التحديد فى الجزء الأول منها، وثالثا الصورة الأصلية التى افترض الباحثون أن الملحمة قد ظهرت فيها قبل أن يتألف منها هذا العمل الأدبى، ويظهر فى صورته الأخيرة. وسنعرض الآن للآراء التى تتصل بهذه القضايا.

### ( أ ) الأصل الأول للملحمة ديجنيس أكريتس :

هناك فكرة عامة فى أصل الملاحم يسترشد بها الباحث دائما فى البحث

(١) انظر مافروجورداتو ص ١٥، ١٦ من المقدمة.

عن أصول الملحمة التي يدرسها والتي تستوى بين يديه في صورتها الكاملة، وهي أن الملحمة ترتكر دائما على بعض الأناشيد والأغنيات الشعبية الصغيرة التي تتصل ببعض الحوادث الكبرى المهمة في حياة الشعب أو التي مازال لها صدى في هذه الحياة.

وعلى أساس من هذه الفكرة - فيما يبدو - بحث ساتاس وليجران عن الأناشيد التي تتغنى ببعض أحداث الملحمة، وقالوا بضرورة دراستها لصلتها القوية بالملحمة. وقد قاما من أجل ذلك بترجمة بعض هذه الأناشيد في مقدمتهما لدراسة الملحمة<sup>(١)</sup>.

وقد تداول البحث آخرون غير ساتاس وليجران. ومن الباحثين من وصل إلى حد الجزم بأثر هذه الأناشيد في الملحمة، ومنهم من وقف به التحرز دون ذلك، ومنهم من نفى على وجه الإطلاق أن يكون لتلك الأناشيد أى أثر في الملحمة.

فالأستاذ جريجوار يشارك ساتاس وليجران الرأي في صلة الأناشيد بالملحمة، ولكنه لا يصل مثلهما إلى حد الجزم بتأثيرها فيها.

أما الأستاذ كرياكيدس فقد رأى أن الملحمة قد تأثرت بتلك الأناشيد، وأن كاتب الملحمة قد وجد فيها مادة ثمينة لكتابه.

وإذا كانت الملحمة قد أفقدت تلك الأناشيد التي استمدت منها مادتها ورنقها الخاص وأضافتها إلى بنية الملحمة على نحو جاف - فلأن الشاعر كان مرتبطا ببعض الحوادث التاريخية التي صورها في الملحمة.

---

Gregoire; Byzantion, 1932 - VII, 290. (١)

Gregoire; Byzantion, 1932 - VII, 290. (٢)

وعلى العكس من كريكيدس رأى مافروجورداتو أنه لا يمكن القطع  
بأن تلك الأناشيد فى الملحمة، لسببين:

أولهما: أن هذه الأناشيد قد جمع أكثرها فى العصور المتأخرة، ومن  
العسير على الباحث أن يقرر أنها كانت أسبق من الملحمة فى التأليف.

ثانيهما: أن ديجنيس ليس البطل الوحيد الذى أشادت به الأناشيد فقد  
أشادت إلى جانبه بأبطال آخرين منهم «أرموريوبولس» و «أندرونيكوس»  
و «بورفوريس» وغيرهم.

وسواء استفاد مؤلف الملحمة من تلك الأناشيد أم لم يستفد فإن الكاتب  
يريد أنه لا داعى لأن نقرن بين الأناشيد والملحمة إذ أن هذه وتلك تعدان  
مظهرين من مظاهر تطور القصص البطولى. فالفرق بين القصة الشعرية التى  
كان يتغنى بها وبين الملحمة لا يعد فرقا فى مراحل التأليف أو فرقا فى طريقة  
معالجة المادة الواحدة التى تستخدم مرة فى خلق أناشيد يهتف بها الناس فى  
الطرقات ومرة أخرى فى خلق أدبى صنع ليتلى فى حفل من الناس أو  
للقراءة الخاصة. إن الفرق بين هذين النوعين إنما يتمثل بين مستويات  
مختلفة من الرغبة أكثر من تمثله فى أى شىء آخر<sup>(١)</sup>.

وينبغى الآن أن نشير فى إيجاز إلى تلك الأناشيد حتى نتأكد من مدى  
صحة تلك الآراء..

\*\*\*

---

Mavrogordato: Op. cit., P. XXVIII.

(١)

## ١- ديجنيس وفتاته :

تحكى هذه الأنشودة أن ثلاثة من الأشراف اجتمعوا للأكل والشراب . ولما لم يكن لديهم موضوع يتحدثون فيه فقد اتفقوا فيما بينهم على أن يتحدثوا - كل فى دوره - عن السيف والرمح والقصور . وجاء دور ثالثهم فأخذ يتحدث عن أجمل القصور التى شاهدها، وعن الفتاة التى رآها فى أحدها . وتصادف أن كان ديجنيس يسير بجانب المكان الذى كانوا يتسامرون فيه، فسمع ما حكاه الأخير عن الفتاة التى رآها فيما أعجبه من القصور، فدخل إليهم فقاموا له واقفين ودعوه للأكل والشرب معهم . لكنه رفض ذلك وطلب من الشريف الثالث أن يعيد عليه ما حكاه . فلما تأكد من أن ما سمعه كان صحيحا ذهب إلى صديقه «خليبابوس» وطلب منه أن يخطب له تلك الفتاة . ومضى خليبابوس لهذا الغرض، ولكن أم الفتاة رفضت أن تزوج ابنتها من ديجنيس لأن أمه عربية وأباه يهودى . أما الأب فلم يكن يعارض هذا الزواج . وعاد خليبابوس فأخبر صديقه بذلك . وغضب ديجنيس مما سمعه، وطلب من صديقه «خليبابوس» أن ينزل عن فرسه حتى يركب ويذهب لأخذ الفتاة إن لم يكن برضاء والديها فعنوة . عند ذلك أخذ «خليبابوس» يسدى إليه النصيحة فقال له : «انظر يا ديجنيس .. انتظر حتى أسدى لك النصيحة . اتخذ هذا الطريق، طريق الدروب فإنه يقودك إلى رابية تنتشر فيها أشجار الشوخ الجميلة التى يمتلكها بعض الأعراب فاجلس هناك واعزف على قيثارتك وغن ألحانك العذبة، وسوف تشاركك طيور السماء ألحانك . وعندما تسمع الفتاة صوتك ستفتح نافذتها وتطل منها . فإذا كنت شجاعا وجريئا فاطخفها واهرب بها» . ونفذ ديجنيس خطة

خليابوس وهرب بالفتاة وخرج أهلها في أثره. فلما وصل إلى صحرة عالية أنزل فتاته. وإذا به يرى أفعى تخرج من بين الصخور تريد أن تلتهم الفتاة. فما أسرع ما استل سيفه وأجهز على الأفعى. وحينما أدركه من تبعه من أهل الفتاة أعد نفسه لملاقاتهم. وفجأة ظهر والد الفتاة على رأس خدمه وبسط يده لديجنيس يصفحه مباركا زواجه من ابنته<sup>(١)</sup>.

## ٢- ولد أندرونيك :

وتحكى هذه الأنشودة أن العرب قاموا بغارة ضد أندرونيك وأسروا زوجته وهي حبلى في الشهر التاسع. وقد وضعت الزوجة طفلها في الأسر، وأخذت ترضعه اللبن وتطعمه فئات الخبز، كما أخذت زوجة الأمير تطعمه العسل وفتات الخبز. لقد كانت أمه تناديه: «أى ولد أندرونيك!»، وكانت زوجة الأمير تناديه: «أى بنى ابن الأمير».

وكبر الطفل وحمل السيف في السنة الأولى من عمره والرمح في الثانية. ثم كبر وذاع صيته، ولم يكن يخشى إنسانا لافوكاس ولا نقفور. وذات يوم امتطى صهوة جواده الأسود وسار به حتى وصل إلى الجبال وهناك التقى بجماعة من الأعراب حاولوا أسره، لكنه لم يخشهم وطلب منهم أن يقيدوا كتفيه، وأن يضعوا الحديد في رجليه فإن ذلك لن يضره. وصنعوا به ذلك، ولكنه فك القيود وولى مسرعا، وامتطى صهوة جواده. ولما رأته أمه قالت له: «إذا أردت أن تذهب إلى أبيك فسر في الصحراء حتى تقابل خياما، فاترك الخيام كلها جانبا حتى تصل إلى خيمة سوداء فهذه

Sathas et Legrand; op. cit., P. 54.

(١)

خيمة أبيك». وفعل الصبي ما أشارت عليه به أمه حتى وصل إلى الخيمة السوداء فوقف بجانبها يبحث عن بابها فلم يجد لها بابا. عند ذلك ألقى سيفه في الرمال وهتف بصوت مرتفع سمعه أندرونيك فخرج إليه، ولم يكن يعرف أنه ابنه. ولما سأله «من أنت؟» أجابه:

إذا أنت لم تقبل رجائي فلن تطأ قدماى الأرض بعد ذلك.

وإذا حملت سيفى امتجرت بك

وإذا حملت سيفك حملت سيفى

وإذا حملت رمحى امتجرت بك

وإذا حملت رمحك حملت رمحى

وطلب منه أندرونيك أن يحدثه عن أصله. وسرعان ما عرف الوالد ابنه، فقبله وقال له: «الآن قد صرنا بازين»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

### ٣. جولة مشلومة:

تزوجت «أيوديس» فى الغرابة بعيدا عن أمها وأخوتها التسعة.

ولقد كان ثمانية من أخوتها يعارضون ذلك الزواج، ولم يكن يحذه سوى أخيها التاسع قسطنطين. وكان هذا كثيرا ما يقول لأمه: «زوجى ابنتك فى البلاد الغربية يا أمى، البلاد الغربية التى أتجول بها، فربما وجدت

Ibid., P. XLVII .

(١)

لديها فى النهاية راحة من عناء تجوالى. «وتزوجت الفتاة بعيدا ولم تعد الأم تسمع عنها شيئا.

وخرج قسطنطين للبحث عنها فقتل فى الطريق، واختفى الإثنان عن الأم. عند ذلك خرجت الأم تستصرخ الطبيعة عليها تشفق عليها. وفى هذه الأثناء ظهر شبح قسطنطين لأخته فى غربتها وطلب منها أن ترجع إلى أمها. وفيما هما يتحدثان إذا بالفتاة تسمع الطيور تغنى أغنية حزينة، فقطعت حديثها مع أخيها ولفتت نظره إلى أغنية الطير الحزينة. عند ذلك قال قسطنطين: «دعيه يغنى ويطرب لأغنيته إنه طير أحمر». ثم إنه رجاها أن تجد فى الرحيل. ولما أخبرته أنها لن ترحل بدونه، قال لها أنه مجهد من كثرة التجوال، وأنه يريد أن يستريح قليلا، ثم كرر رجاؤه إليها بالعودة.

ورحلت الفتاة حتى وصلت منزل أبيها فإذا به تشمله الكآبة والحزن. وطرقت الباب فإذا بأمها تهتف باسم صهرها وتطلب منه أن يفارقها إذا كان قد جلب لحياتها التعاسة. ثم عرفت الأم أخيرا ابتتها، وقصت عليها الابنة قصة أخيها قسطنطين، فانتابت الأم الحسرة واللوعة وماتت لتوها وماتت معها ابنتها<sup>(١)</sup>.

هذه الأناشيد الثلاثة تعد أوضح الأناشيد صلة بالملحمة. فالشخصيات التى تتغنى بها هى نفس الشخصيات التى تغنت بها الملحمة. الأناشيد الأولى تتغنى بديجيس وتحكى قصة اختطافه لفتاته. وهذه القصة - إذا استثنينا بدايتها - هى بعينها القصة التى روتها الملحمة. والاختلاف بين

Ibid., P. XXL .

(١)

القصتين هو أن الأنشودة جعلت من حليابوس - الذى يبدو أنه تحريف لاسم فيليبابوس - صديقا لديجينيس، فى حين جعلت منه الملحمة عدوا له.

أما الأنشودة الثانية فقد تغنت بولد أندرونيك. وهى تشير إلى حادثة أندرونيك دو كاس التاريخية، فهى تصور أندرونيك أسيرا لدى العرب، وتصور سبى العرب لزوجته التى ولدت ابنها البطل بينهم، هذا البطل الصغير الذى ما لبث أن كبر وخرج ليحرر أباه من الأسر: والأنشودة تعد ردا على ما صدر من أندرونيك من تركه لبلاده ولجوئه إلى العرب وإعلانه الإسلام. إنها تصوره عاجزا عن الرجوع إلى بلاده. أما ابنه قسطنطين الذى كان أكثر منه وطنية فإنه - حينما فضل الرجوع إلى بلاده على البقاء بأرض المسلمين - فقد أخذ على عاتقه أن يحرر أباه.

أما الأغنية الثالثة الحزينة فتروى بشكل آخر قصة موصول الأمير العربى الذى اختطف ابنة أندرونيك غصبا، والذى خرج فى إثره أخوة الفتاة وبينهم قسطنطين، لتخليص أختهم من الأسر.

ومن كل ذلك نرى أن هذه الأناشيد تتناول بعض حوادث الملحمة، وأن مؤلفها استطاع أن يصوغها أغنيات عذبة انتشرت فى نطاق واسع على ألسنة الشعب، بل إنها مازالت تنتشر بين أبناء الشعب اليونانى حتى اليوم<sup>(١)</sup>.

ورغم هذه الملامح المتشابهة بين الملحمة والأناشيد التى ذكرناها فإنه مازال من الصعب القطع بأسبعية الأناشيد على الملحمة - أو العكس -

---

Gregoire: Nouvelles chansons epiques des IX et X siècles; Byzan- (١)  
tion, XIV, 35.

فليس هناك دليل يؤكد ذلك كما سبق أن أشار مافروجورداتو. ونتيجة ذلك مباشرة أنه ليس من السهل القول بتأثير هذه الأناشيد في الملحمة..

\*\*\*

### (ب) صلة الملحمة بالتاريخ:

وقد لفت نظر الباحثين في الملحمة أنها تتضمن أسماء وحوادث تاريخية. وبمضاهاة هذه الحوادث والشخص بما يقابلها في التاريخ تبين أن الملحمة تستند إلى أصل تاريخي موثوق به، بل لعل تلك الأحداث التاريخية الحقيقية التي تحكيها الملحمة كذلك كانت - بما لها من دلالات خاصة - عاملا من العوامل التي دفعت إلى تأليف الملحمة..

وأول من تحدث عن الأصل التاريخي للملحمة ساتاس وليجران. فقد لاحظنا أن الأسماء التي تذكرها الملحمة ترتبط ارتباطا تاريخيا، وتصنع سلسلة من الحوادث، متصلة الحلقات. هذه الأسماء هي «خريزوفيرجوس» والد موصور الأمير العربي، وقرياس عمه، ثم أمبرون جده لأمه، ثم أمه بانثيا، ثم ابنة القائد الذي كان يحكم إقليم قبادوقيا، التي كانت من سلالة قسطنطين دوكاس..

أما البلدان والأجناد التي ذكرتها الملحمة فجلها يقع في منطقة الثغور السورية، وكانت مشار النزاع دائما بين العرب والروم. ومن الأجناد التي ذكرت جند قبادوقيا وخرشنة، ومن البلدان تفريك وأمد..

أما الحوادث التاريخية التي تربط بين خريزوفيرجوس والد الأمير العربي موصور وبين قرياص عمه، ثم تربط بين هذين وبين أمبرون جد الأمير

لأمه، ثم تربط بين هذا كله والقائد قسطنطين دوكاس، فهي تلك الحوادث التي وقعت على الحدود العربية البيزنطية فيما بين عام ٨٥٦ وعام ٨٦٩م. ففى هذه الفترة كانت الدولة البيزنطية مهددة بعدوين متحالفين هما البولصيون والعرب..

والبولصيون ينتمون إلى زعيمهم بولص السمساطى<sup>(١)</sup>. وهم جماعة من الهراطقة فى رأى الدولة البيزنطية، إذ أنهم رفضوا الكنائس وقسماها كما رفضوا عبادة الصور المقدسة وطقوس الدين المسيحى<sup>(٢)</sup>. وكانوا يعيشون فى أمن منذ أيام قسطنطين الخامس فى آسيا الصغرى على حدود العرب يؤدون للإمبراطورية الرومية فى عمليات الثغور أجل الخدمات. وقررت الحكومة قرارا قاسيا هو إرجاعهم إلى الارثوذكسية وإن هلكوا. وأعدت حملة لذلك على رأسها ليون بن أرجيز<sup>(٣)</sup>، وأندرونيك بن دوكاس<sup>(٤)</sup>، وسوداليس<sup>(٥)</sup>، فقادوا حملة لا مجال فيها للرحمة، فشنق البولصيون بالآلاف، وأغرقوا وذبحوا

---

Stevan Runciman; The Medieval Manichee; Cambridge 1955, PP. (١)

48-9

Ibid., P. 50.

(٢)

(٣) ظهر اسم ليون بن أرجير فى أنشودة تشيد بانتصار البطل الرومى عند نهر الفرات. وسنشير إلى ذلك فيما بعد.

(٤) أندرونيك دوكاس هو اسم القائد الذى اختطف ابنته الأمير العربى موصور.

(٥) ظهر اسم سوداليس فى مخطوطة الاسكوريال وكذلك فى مخطوطة أندروس

على أنه عربى يعمل فى خدمة القائد الذى اختطف ديجنيس ابنته. وقد كان

سوداليس من بين الذين أسرعوا وراء ديجنيس لإنقاذ الفتاة فقتله ديجنيس.

ويرى مافروجورداتر (انظر ص ٣٩ من مقدمة كتابه) أن هذا هو الأثر الوحيد فى

الملحمة الذى يكشف عن كراهية ديجنيس للعرب..

ولكننا نرى الآن أن سوالديس هذا كان قائدا بيزنطيا، مما يؤكد لنا أن إضافة

صفة العربى إلى سوداليس إنما جاءت متأخرة.

ونزعت أملاكهم. واضطر البوليصيون أمام مثل هذا الاضطهاد أن يفروا إلى ما وراء الحدود فتلقاهم العرب فرحين، وأنزلوهم فى مواضع آمنة وأدخلوهم بعد ذلك فى جيوشهم، فاشتركوا بعد ذلك فى حملاتهم على الروم أكثر من مرة. وهكذا أدى هذا التعصب الأعمى فى سياسة الروم إلى نتائج خطيرة هى هدم الحدود الشرقية وهى الخندق الحامى من الغزو العربى<sup>(١)</sup>.

ولم يكن هذا أول اضطهاد عاناه البوليصيون من الدولة البيزنطية، فالمؤرخون يرون يرون أنهم قد عانوا من الاضطهاد قبل ذلك. وقد كان نتيجة ذلك الاضطهاد أن رحل زعيمهم قرياص Karbeas إلى ما وراء إقليم قبادوقيا بجماعة من رجاله يبلغ عددهم خمسة آلاف. وهناك وضعوا أنفسهم فى حماية أمير ملطية ومنذ ذلك الحين أخذوا يتوافدون على إقليم قبادوقيا وبنطس<sup>(٢)</sup>. ثم «بنى البوليصيون لأنفسهم مدينتين على حدود أرمينية فى منطقة سيواس الجبلية، وهما مدينتا أرجايوس وأمارا، فقصدتهما من أهل دينهم عدد كبير، حتى اضطروا إلى بناء مدينة ثالثة غير بعيدة عن الأوليين وهى تفريق «دفرىجى»<sup>(٣)</sup>، فأصبحت منذئذ مركزا أو عاصمة للبوليصيين، وفى هذه المدينة عاش رؤساء البوليصيين قرياص وكريزجيز وغيرهما»<sup>(٤)</sup>. ثم

---

(١) فازيليف: العرب والروم - ترجمة الدكتورين شعيرة وفؤاد حسنين (دار الفكر العربى ص ٢٠ - ٢٠٣).

(٢) Burry: History of the Eastern Roman Empire; London 1912, P. 277.

(٣) هكذا ورد اسم هذه البلدة فى الترجمة، وقد رجعنا إلى الطبرى فوجدناه يذكر الاسم هكذا: تفريق. وسوف نلتزم فى بحثنا هذه التسمية العربية القديمة.

(٤) فازيليف، ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

إنهم حاولوا متعاونين مع عمر الأقطع أمير ملطية وعلى بن يحيى الأرمني أمير طرطوس أن يقوموا بغزوات عديدة في أرض الروم إلى حد أن اتهم زعيمهم قرباص بتحويله إلى الدين الإسلامي<sup>(١)</sup> ..

وأرادت الدولة البيزنطية أن تضرب ضربتها فتقضى على هؤلاء الهراطقة. وكان ذلك في عهد الامبراطورة «تيودورا» التي كانت وصية على ابنها ميشيل الثالث (٨٤٢ - ٨٦٧م). فأرسلت حملة بقيادة أخيها «بتروناس» سنة ٨٥٦م، فقام بغارات ناجحة في سومسطة وأمد ثم تقدم إلى تفريق موطن قرباص فحطم وخرب وقفل راجعا قبل أن تلتحق به جيوش البوليصيين أو العرب. ثم تكرر الغزو مرة أخرى من جانب الروم عام ٨٥٩م كما تدل على ذلك النقوش التي أمر ميخائيل الثالث بحفرها على أسوار قلعة أنقرة حين رمهما استعدادا للقتال، وحتى يعتمد عليها إذا ما ارتد إلى الوراء بجيشه. ولم تحرز هذه الحملة انتصارا أكبر من سابقتها<sup>(٢)</sup>.

وفي عام ٨٦٣ أراد ميخائيل الثالث أن يعيد المحاولة مع قواد جيشه فسار متجها إلى الفرات الأعلى عن طريق أنقرة وسياسطبا، .. وفي الوقت نفسه جمع عمر بن عبد الله الأقطع جيشه وعسكر بجانبه، وهزم ميخائيل الذي تمكن من الهرب. وسار بعد ذلك عمر - بطل ملطية - في قلب آسيا الصغرى فاستولى على سينوب ثم سمسون، ثم وجد البحر أمامه فضرب في أمواجه متجها إلى القسطنطينية. وعند ذلك ثارت نائرة الحكام البيزنطيين وحشدوا كل جيوشهم وحاصر جندهم عمر الأقطع من جميع الجهات.

Runciman: Op. cit., P. 41.

(١)

Bury: Op. cit., P. 282.

(٢)

ولم يقو عمر على مواجهة تلك الجيوش الجرارة، فوقع أسيراً، ثم قتل وحمل رأسه إلى القسطنطينية<sup>(١)</sup>. وحين تم للروم القضاء على القائد العربي لم يصعب عليهم أن يوقعوا قرياص في الأسر ويقتلوه كذلك. ورغم ذلك لم يشمل الهدوء منطقة الحدود تماما إذ سرعان ما جمع البولصيون شملهم بعد مقتل زعيمهم وعينوا عليهم زعيماً آخر هو جون خريزوشير John Ghrysochair وهو ابن أخي قرياص<sup>(٢)</sup>، هذا بالإضافة إلى أن مركز المسلمين كان مايزال قويا على الحدود الشرقية. فبالرغم من هلاك أشهر قوادهم - عمر بن عبيد الله الأقطع وعلى بن يحيى الأرمني عام ٨٦٣م - استطاعوا الاستيلاء على بعض الحصون، بل إن مركزهم كان قد قوى فى قبادوقيا شرق نهر الهاليس<sup>(٣)</sup> ..

وفى عام ٨٦٩م حاول بازل<sup>(٤)</sup> المقدونى أن يعقد صلحا مع البولصين لعله يفرغ بذلك لتحقيق مطامعه فى إيطاليا، فأرسل إلى زعيمهم خريزوشير رسولا يحمل إليه الهدايا، فما كان من الزعيم البوليسى إلا أن رد الرسول قائلاً له: «إذا كان الامبراطور يريد السلام فدعه يتنازل عن أطماعه فى الشرق

(١) Runciman: Op. cit., P. 41.

(٢) Bury: Op. cit., PP. 282-3.

(٣) Bury: Op. cit., P. 285.

(٤) بازل المقدونى مؤسس الأسرة المقدونية ومختصب العرش من ميخائيل الثالث آخر أباطرة الأسرة العمورية. حكم من عام ٨٦٧ إلى عام ٨٨٦م. وتعد فترة حكم الأسرة المقدونية (٨٦٧-١٠٥٧)م وعلى رأسها بازل الفترة اللامعة فى تاريخ الدولة البيزنطية.

ويفزع لسلطانه فى الغرب». وقد أراد الزعيم بذلك أن يسخر من أطماع بازيل المقدونى التى تسول له الاستيلاء على إيطاليا<sup>(١)</sup>.

لكن بازيل لم يأس، ففى عام ٨٧٠م تحرك بجيشه إلى تفریق، وحطم كثيرا من القرى البوليصية منها «أفارا وسباتى وكويتس». وفى عام ٨٧٢م استطاعت جيوش الدولة بأسرها أن تهزم البوليصيين وتقتل زعيمهم خريزو شير وتبعث برأسه إلى القسطنطينية، وبذلك انتهى خطر البوليصين الذين دوخوا أباطرة الدولة البيزنطية سنين طويلة. أما خطر المسلمين فقد ظل يتهدد البيزنطيين بعد موت البطلين المجاهدين عمر بن عبد الله الأقطع الذى أدار شئون ثغور الجزيرة قرابة ثمان وعشرين عاما، وعلى بن يحيى الأرمنى الذى قام على شئون ثغور الشام أحد عشر عاما<sup>(٢)</sup>.

على أن الظروف التى مرت بها الدولة الإسلامية منذ أن تولى بازل الأول الحكم ٨٦٧م كانت من شأنها أن تساعد الأباطرة البيزنطيين على أن يضعوا أيديهم مرة أخرى على مناطق الثغور. ولم تكن الحروب التى قام بها سيف الدولة إلا محاولات مؤقتة لضمان سيادة الإسلام فى تلك المناطق. ولما شغل سيف الدولة بشئون الداخلية تمكن القائد البيزنطى «جون كاركوس» (٩٤٢ - ٩٤٣)م من الاستيلاء على ميفارقين ودارا ونصيبين. وفى عام ٩٤٤م استولى هذا القائد على أديسا التى كانت تحتفظ بأثر ثمين

Runciman: Op. cit., P. 42. (١)

Runciman: Op. cit., p. 43. (٢)

Cambridge Med. Hist., IV, وانظر كذلك

من التراث المسيحي، وهو صورة لوجه المسيح منطبعة في شفته<sup>(١)</sup>، فاستولى على هذا الأثر وأرسله إلى القسطنطينية..

ولم يستطع سيف الدولة أن يقاوم خطر البيزنطيين بعد ذلك مدة طويلة إذ توفي عام ٩٦٧م. وبعد ذلك ساد الشغب منطقة الثغور مما ساعد البيزنطيين على أن يختموا الفصل المسرحي الأول للحروب الإسلامية المسيحية في تلك المنطقة، وذلك بأستيلاء نقفور فوكاس على أنطاكية عام ٩٦٩م وعلى حلب عام ٩٧٠م<sup>(٢)</sup>.

وبذلك افتتحت هذه المنطقة عهدا جديدا انتهى ببداية الحروب الصليبية..

\*\*\*

Cambridge Med. Hist. 143.

(١)

(٢) قال الطبري في حوادث سنة ٢٤٢هـ: «وفيها خرجت الروم من ناحية شمشاط بعد خروج علي بن يحيى الأرمني ونهب عدة قرى وأسروا نحوا من عشرة آلاف إنسان، وكان دخولهم من ناحية تفريق قرية قرياس ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم. فخرج قرياس وعمر بن عبد الله الأقطع (في موضع آخر عمرو بن عبيد الله - انظر الطبري ط ابريل ج ٣ ص ١٥٠٩) وقوم من المتطوعة في أثرهم فلم يلحقوا منهم أحدا فكتب إلى علي بن يحيى أن يسير إلى بلادهم شاتيا» - (الطبري ج ٣ ص ١٤٣٤). ثم يذكر الطبري (ج ٣ ص ١٥٠٩) حادثة وفاة عمر بن عبيد الله ويحيى الأرمني في حوادث سنة ٢٤٩ هـ فيقول: «فما كان من ذلك غزو جعفر بن دينار الصائفة، فانتزع حصنا ومطامير، واستأذنه عمر بن عبيد الله الأقطع في السير إلى ناحية من بلاد الروم فأذن له فسار ومعه خلق كثير من أهل ملطية، فلقيه الملك في جمع الروم عظيم بموضع يقال له أرز من مرج الأسقف، فحاربه بمن معه محاربة شديدة قتل فيها خلق كثير من الفريقين.

ثم أحاطت به الروم وهم خمسون ألفا قتل عمر وألف رجل من المسلمين»، ويذكر بعد ذلك أن يحيى قتل في نفس السنة.

هذا هو الصراع التاريخى الذى وجد فيه مؤرخو الآداب البيزنطية الباعث الأول على تأليف الملحمة. إنه الصراع على السيادة فى منطقة الفرات بين العرب والبيزنطيين، ذلك الصراع الذى تراءى لمؤلف الملحمة متبلورا فى الحوادث التاريخية التى صورناها، والذى يتمثل فى انشقاق بعض الفئات على الدولة البيزنطية وانضمام المنشقين جها إلى منافس الدولة الأكبر، وأعنى به الدولة الإسلامية.

والآن نعرض لآراء الباحثين التى نحاول أن تربط ما صورناه من حوادث تاريخية بالحوادث التى تتألف منها قصة الملحمة. وسنبداً بعرض آراء ساتاس وليجران، فهما أول من عنى بملحمتنا.

وقد عرض الباحثان منذ البداية لنسب ديجنيس الذى أوضحه والده الأمير العربى موصور فى بداية القصة. لقد قرر موصور أن أباه، خريزوفيرجس وأمه سباتا وأن جده لأمه هو أمبرون كما أن عمه هو كرويس - أو قرباص كما تذكره المراجع الغربية - ..

ولما تزوج موصور بابنة القائد أندرونك دوكاس أصبح ديجنيس ينتسب إلى أندرونك دوكاس من جهة أمه. وإلى خريزوفيرجس من جهة أبيه..

وهنا يقف الباحثان وقفة طويلة فى بحث نسب ديجنيس من جهة أمه ومن جهة أبيه. أما نسبه من جهة أبيه فقد أعلن الباحثان أن خريزوفيرجس ليس إلا خريزوشير القائد البوليسى الذى حاربه يازل الأول وقتله. أما قرباص عمه فهو القائد البوليسى الآخر الذى كان خريزوشير صهرا له ووارثا لزعامته. أما أمبرون فهو الاسم الذى أطلقته المراجع البيزنطية على عمر بن

عيد الله الملطي الذي كان قريباص يعمل معه ضد الامبراطورية البيزنطية. ولم يكن غريبا أن يرتبط اسما القائدين البوليصيين باسم القائد العربي، فالصلة التاريخية بين عمر الملطي والبوليصيين وعلى رأسهم قريباص ثابتة إلى حد أن اتهم الأخير بدخوله في الإسلام كما ذكرنا. ولكن الغريب أن يرتبط نسب ديجنيس من جهة أبيه بالبوليصيين ثم من جهة أمه بأندورنيك دوкас، مع أن الثابت تاريخيا أن أندورنيك هذا قد حارب البوليصيين.

وهنا يفسر الكاتبان هذا التناقض بما حدث في التاريخ كذلك، فقد حدث أن كان في قصر ليون السادس عربي هارب من طرسوس يسمى ساموناس، وكان الامبراطور قد أولاه ثقته. ولكنه طرح تلك الثقة جانبا وهرب إلى سوريا. وخشى الامبراطور من كثرة الشائعات حول ذلك فأرسل القائد أندورنيكوس دوкас خلف ساموناس لكي يحثه على العودة. وقد عاد ساموناس، ولكن الشائعات ضد الامبراطور قد كثرت رغم ذلك. وحاول الامبراطور أن يرىء نفسه فأوعز إلى أندورتيكوس أن يعلن في البلاط أن ساموناس لم يهرب، وأنه إنما كان قد رحل ليوفى بنذر في أحد أديرة سوريا. لكن أندورنيكوس أعلن في البلاط الحقيقة. وهي أن ساموناس كان قد هرب إلى سوريا. وبعد ذلك تلقى القائد هيميريوس أمرا أمبراطوريا بأن يستعد بأسطوله لقتال العرب، وأن يصطحب معه أندورنيك، لكن ساموناس أوعز إلى أحد معارفه أن يكتب خطابا لأندورنيك ينصحه فيه بعدم الرحيل لأن الامبراطور يدبر ضده مؤامرة. وصدق أندورنيك الخبر وأمتنع عن الرحيل مع هيميريوس لقتال العرب. ولما رحل الأخير مظفرا ندم أندورنيك وخشى في

الوقت نفسه حكم الامبراطور عليه نتيجة هاتين الحادثتين المتتاليتين فرحل إلى قلعة كبالا في سوريا<sup>(١)</sup>.

ويمضى الباحثان قدما في التحقيق التاريخي معتمدين على المصادر اليونانية المؤرخة للدولة البيزنطية فيشير إلى أن هذه المراجع تتحدث عن نهب العرب لبيت أندرونك دوкас في أثناء مقابله للخليفة في بغداد. ويقول المؤرخان أنه من المحتمل أن تكون ابنة أندرونك قد أخذت سبية في أثناء ذلك النهب. وقد كان أخوها قسطنطين معها في البيت في تلك الأثناء. ولهذا فإن اسم قسطنطين يذكر في الملحمة بين أسماء الأخوة الآخرين<sup>(٢)</sup>.

أما سباتيا أم موصور وزوجة خريزوفيرجس فاسمها يشير إلى هذه الحوادث كذلك. فالثابت عند المؤرخين اليونان - كما يقول الباحثان - أن القلاع التي كان العرب والبوليصيون يشيدونها على نهر الفرات كانت تحمل أسماء

---

(١) Sathas et Legrand: Op. cit., P. XCII.

الوسطى حادثة هروب أندرونك ولجؤته إلى العرب ومقابله للخليفة في بغداد ويحدد ذلك بعام ٩٠٧ م. (انظر:

(Cambridge Med Hist. IV. 275).

(٢) انظر الملحمة، البيتين ١٣١ - ١٣٢ (مافروجورداتو). ويزيد جويجوار الأمر

وضوحا بأن يذكر - نقلا عن المراجع اليونانية - أن أندرونك دوкас لجأ إلى خليفة بغداد وأهلن إسلامه، وأنه لم يرجع بعد ذلك إلى بلاده رغم محاولات الامبراطور ليون السادس لارجاعه. أما ابنة قسطنطين فلم يتبعه فيما صنع وهرب إلى القسطنطينية. وهناك استقباله الامبراطور بالحفاوة والحذر كذلك. (انظر:

Gregoire: L'age héroïque de Byzance; Paris 1933, P. 391.

وبذلك كسب قسطنطين إعجاب أفراد الشعب فصوروا بطولته في أناشيدهم..

بانيها. ومن ذلك قلعة بناها خريزوشيير تسمى سباتيا. ثم يقول الباحثان بعد ذلك أنه من المؤكد أن خريزوشيير قد سمي القلعة بهذا الاسم تكريما لزوجته<sup>(١)</sup>.

وإذا كان الباحثان قد أرجعا كل حادثة فى الملحمة إلى أصلها التاريخي فإنهما لم يفتلا البحث عن الأصل التاريخي للبطل ديجنيس أكرتس. فمن ديجنيس أكرتس؟.

يشير الباحثان إلى نص تاريخي للمؤرخ يوناني معاصر يدعى «ميشيل باسيلوس» يشير فيه إلى شجاعة أفراد أسرة دوкас<sup>(٢)</sup> تلك الأسرة التي كانت تتخذ قبادوقيا موطنها. ويخص هذا المؤرخ بالذكر أندرونيكوس دوкас وابنه قسطنطين دوкас، ثم يهتم بصفة خاصة بشخصية أخرى هي شخصية «بانثريوس»<sup>(٣)</sup>. وعند ذكر هذا الاسم الأخير اعتقد الباحثان أنهما وجدا ضالته. إن «بانثريوس» هذا ليس إلا الشخصية التاريخية لديجنيس. وقد أكد الباحثان رأيهما بأن هناك بعض الأغنيات التي تشيد ببطل اسمه

---

Sathas et Legrand: Op. cit., P. LXXXIX.

(١)

(٢) يذكر تاريخ كامبردج للعصور الوسطى أن عائلة دوкас كانت إحدى العائلات الاقطاعية البيزنطية التي كانت تسكن إقليم قبادوقيا وتنشر سلطانها فيه، وكان لهذه العائلة شأن كبير فى تاريخ الدولة. (انظر:

(Cambridge Med. Hist., IV 771.

Sathas et Legrand: Op. cit., PP. CXXV - CXXVI.

(٣)

«بوفيريوس»، وأن هذا الاسم الأخير ليس إلا تحريفا لاسم بانثريوس<sup>(١)</sup>. ولكن من بانثريوس هذا وما دور البطولة الذى قام به حتى سجل الشعب ذكره فى أناشيد وملاحمه؟

أن الحادثة التاريخية التى تحتفظ بها المراجع الاغريقية فحسب تذكر أن الامبراطور «رومان ليسانى» قد عينه قائدا فى الشرق عام ٩٤٤م بدلا من كوركياس الذى كان ندا لسيف الدولة فى حروبه فى الشرق. ولكن اسم بانثريوس هذا لم يلبث أن اختفى من تاريخ الدولة البيزنطية ولمع اسم برداس فوكاس الذى حل محل كوركاس فى قيادة الجيوش المحاربة للعرب.

وقد يعترض معترض بأن تلك الحلقة التاريخية من حياة بانثريوس لا يمكن الاعتماد عليها فى إذاعة شهرة هذا البطل الذى قد تغنى الشعب ببطولته. ورغم أن الباحثين لم ينكروا ذلك فإنهما يقطعان بأنه كان بطلا لا يسعى وراء مطامعه الشخصية، وأنه لم يكن له هدف سوى صالح الوطن. وإلا أهمله المؤرخ باسيليوس الذى عرف بدراسته العميقة لتاريخ هذه الفترة - كما يقول الباحثان. وإذا كان المؤرخون خلاف باسيليوس لم يحتفلوا بهذا البطل، فذلك لأن الأباطرة قد تنكرت له كما تنكرت لأبائه من عائلة دوكاس من قبل.. أما الشعب فقد احتفظ بذكراه ومنحه لقب «ديجنيس أكرتس»<sup>(٢)</sup>، ونسبه إلى عائلة أندرونيكوس.

وعند هذا الحد تنتهى محاولة الباحثين إرجاع كل حوادث الملحمة أو جعلها إلى أصول تاريخية، وكذلك تحقيق شخصياتها تاريخيا. ولكننا نلاحظ

---

(١) يقال أن الشاهنامة قد خلدت بانثريوس هذا تحت اسم فارقوروس. (انظر المرجع السابق ص ١٣٤).

Sathas et Legrand: Op. cit., p.C.

(٢)

أنهما تجنبا تفسير ظهور ذلك الأصل العربى فى نسب ديجنيس، وإن كانا قد فسروا ظهور العناصر الأخرى من نسبه. وهما كذلك لم يفسرا معنى الاسم «ديجنيس» واكتفيا بأن ذكرا أنه كان لقباً أطلقه الشعب عليه. هذا من جهة، ومن جهة أخرى اجتهد الباحثان فى الربط بين حوادث الملحمة وحوادث التاريخ ربطاً محكماً. ونحن لا نتكر أنهما قدما للعلم بذلك إشارات قيمة اعتمد عليها الباحثون فيما بعد فى دراستهم للملحمة، من ذلك تفسيرهم للأسماء «خريزوفيرجس - وأندرونيكوس - وأمبرون» وغيرها. ولكننا نلاحظ أنهما قد بالغا فى ذلك بعض الشيء. فتفسير شخصية البطل ديجنيس بالقائد «بانثريوس» ليست كافية، إذ لا بد من تفسير تلك العناصر المشتركة من البوليصية والمسيحية والإسلام التى يرتبط بها جميعاً نسب ديجنيس. وحادثة هروب، أندرونيكوس إلى العرب، وكذلك حادثة تعاون قرياص معهم لا تفسران ظهور العنصرين البوليصى والاسلامى فى نسب ديجنيس إذا كان الشعب قد أراد تخليد ذكرى بطل بيزنطى صرف.

\* \* \*

وقد تلا دراسة سانس وليجران للملحمة دراسة أخرى قام بها «أدونز». وقد اتفق هذا مع الباحثين السابقين فى الخطوط الأساسية من حيث صلة الملحمة بالتاريخ، فحوادث البوليصيين وانضمامهم للعرب، ثم محاربة القائد أندرونيكوس لهؤلاء وهؤلاء، ثم اختلاف أندرونيكوس مع الامبراطور ليون السادس وهروبه إلى العرب كذلك - كل هذه الحوادث ترسم الخطوط الأساسية لقصة الملحمة. ولكن «أدونز» بدلا من أن يتعمق البحث فى أسرة

دوكاس التي كان موطنها الأول مقاطعة قبادوقيا، وذلك كما فعل سانس وليجران تمهيدا لإعلان رأيهما في أن البطل ديجنيس كان شخصية بيزنطية تاريخية، بجده يسير في اتجاه آخر. لقد أنكر أولا دعوى هذين الباحثين أن شخصية ديجنيس شخصية تاريخية بيزنطية فقال: «لقد زعم سانس أن ديجنيس - بفضل شجاعته - أراد أن يعيد نظام الدولة المزعوم، فهو الذي أخضع الخارجين على الدولة الذين كانوا يسيطرون في منطقة الفرات. ولكن شخصية ديجنيس أكرتس - حسب القصة الشعبية - لا تتركز على أساس تاريخي يوناني - كما يدعى سانس - وإنما تتركز على أساس أرمني بيزنطي<sup>(١)</sup>. لقد جعلت القصة، من خريزوشير جدا لديجنيس. ومن قريباص عما له. وهذا النسب البوليصي الأرمني له مغزاه في الملحمة. وإذا كان ديجنيس قد انتسب إلى العرب المسلمين من جهة أمه، فذلك لأن البوليصيين كانوا متعاونين مع العرب ضد البيزنطيين. فضلا عن ذلك فإن الملحمة ليست يونانية حسب البيئة الجغرافية التي ولدت فيها أبطالها والتي وقعت فيها معاركهم، فقد كان نشاطهم في منطقة وادي الفرات حيث كان سلطان البوليصيين يمتد من خرشنة حتى سومسطة، مشتملا على تفریق وملطية وميافارقين ثم أديسا. وقد كان يسكن هذه البلاد في الأصل الأرمنيون، ثم أنها كانت منذ القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر في أيدي

---

Adontz (N.): Les Fonds Historiques de l'Épopée Byzantine Digénis (١)

Akritas; byzantische Zeitschrift 1929 -30, p. 213.

ومنطقة أرمينيا هي التي تقع بين آسيا الصغرى ومنطقة الفرات الأعلى وبحر القوقاز، وفي هذه المنطقة كان البوليصيون يعيشون..

الإقطاعيين من الأرمن.. هذه هي حدود البيئة المكانية التي نسجت فيها خيوط قصة ديجنيس أكرتيس الشعبية.. وقد حورت القصة بعد ذلك على يدى شاعر يونانى مجهول ابتعد بها عن بيئتها الحقيقية»<sup>(١)</sup>.

وعلى هذا تنتسب ملحمة «ديجنيس أكرتيس» أصلا إلى الدولة المعادية للبيزنطيين، أى دولة البوليصيين الأرمنيين. ولم يكن ديجنيس إلا رمزا لتلك القوة المسيطرة على منطقة الفرات. أما ذلك الطابع البيزنطى الذى امتزج بالملحمة فلم يأت إلا متأخرا، حينما انتقلت الملحمة إلى البيزنطيين. ثم أن ناقلها لم يتمكن كذلك من التخلص من طابعها الأصلي فاحتفظ به جنبا إلى جنب مع المسحة البيزنطية التى أضفاها عليها..

\*\*\*

ثم جاء جريجوار فألقى بعض الأضواء على أسماء الأشخاص والأماكن التى تذكر بالملحمة. وقد فعل ذلك مستعينا بالمراجع العربية واليونانية القديمة.

لقد أعلن الأمير العربى «مصور» منذ البداية أنه ابن امبرون، أى ابن عمر بن عبيد الله الأقطع. ولما كان ولد عمر بن عبيد الله الذى ورث بطولة أبيه يسمى أبا حفص، فإن هذا يعنى أن الأمير مصور هو أبو حفص أمير ملطية بعد أبيه. ويقول جريجوار إن أبا حفص ظل يحكم مكان أبيه فى ملطية إلى أن اندحر المسلمون فى منطقة الفرات. وقد عقد الامبراطور «رومان ليسابن» الصلح معه عام ٩٢٨م<sup>(٢)</sup>.

Adontz: op. cit., p. 215.

(١)

Gregoire (H.) Les recherches récents sur l'épopée byzantine Antique (٢)

Classique 1932, P. 432

هذا فيما يتعلق بالتفسير التاريخي لشخصية موصور. أما فيما يتعلق بديجنيس، فإن جريجوار يتفق مع سانس وليجران في أن شخصية البطل تصور شخصية بيزنطية صرفا، ولكنه يختلف معه في أن شخصية ديجنيس ليست سوى شخصية بانثوريوس القائد الدوكاسي. إن ديجنيس في رأى جريجوار يصور قائدا بيزنطيا آخر اشترك في معركة ضد المسلمين سنة ٧٨٨م وقتل فيها.. هذا القائد هو «ديوجينس». فقد قام المسلمون بغزوة في آسيا الصغرى سنة ٧٨٨م واخترقوا جند أناتوليا حتى وصلوا إلى قبادوقيا، فجمع حاكم المنطقة جيشه وحاربهم ولكنه هزم وهلك كثير من رجاله من بينهم القائد «ديوجينس». و«ديوجينس التاريخي ليس سوى ديوجينس الذي اشتهر في أناتوليا سنة ٧٨٨ ميلادية في إحدى المعارك ضد العرب»<sup>(١)</sup>..

ومما شجع جريجوار على القول بهذا الرأى والجزم بصحته ما عثر عليه الجغرافيون في القرن التاسع عشر من آثار في منطقة شرقي آسيا الصغرى. ومن بين هذه الآثار قبر القائد ديوجينس الذى عثر عليه بالقرب من طرسوس<sup>(٢)</sup>. وتشير الملحمة إلى أن ديجنيس قد دفن في طرسوس<sup>(٣)</sup>. وعلى ذلك فقد تشابه اسما البطلين، كما أنهما دفنا في مكان واحد تقريبا، الأمر الذى جعل الباحث يجزم بأن ديجنيس هو الشخصية الملحمية للبطل التاريخي ديوجينس..

---

Gregoire (H.): Le Tombeau de Digénes Akritas: Byzantion 1931, p. (١) 501.

Gergoire (H.): Le Tombeau de Digénes Akritas: Byzantion 1932, VII (٢) 286.

(٣) انظر الملحمة (مافروجوداتو ص ٢٤٧) البيت ٣٧٧٧..

ولكن كيف نفسر اختلاف أسماء الأمكنة التي أظهر فيها أبطال الملحمة بطولتهم عن تلك التي اشترك فيها القائد ديوجينيس في معارك لقي في أحداها حتفه؟ هنا يجيب جويجوار بأن الملحمة قد تألفت من القصص الشعبية السابقة عليها - كما سبق أن بينا - تلك القصص التي تغنت ببطولة ديوجينيس. وقد ذاعت تلك القصص في منطقة الفرات، وفي غيرها من المناطق الأخرى المجاورة. وإذا كانت ملحمتنا قد كتبت في القرن العاشر الميلادي كما يؤكد جرايجور حينما استقر الأمر بالبيزنطيين في منطقة الفرات، فهذا لا يعنى سوى أن مؤلف الملحمة قد نقل البطل ديوجينيس من عصر إلى عصر آخر<sup>(١)</sup> ..

ويبقى بعد ذلك أن نشير إلى تفسير هذا الباحث لشخصية «فيليبابوس» رئيس العصاة المشاغبة عند نهر الفرات، وهو الذى حاول أن يختطف زوجة ديوجينيس مستعينا بالأمزون. وهو يعرف فيليبابوس هذا بأنه آخر ملك حكم من أسرة كوماجين، التي ورثت الإسكندرية في حكم منطقة الفرات. وقد توفى في أوائل القرن الثاني الميلادي ومنه انتزاع الرومان الحكم في هذه المنطقة وفرضوا سيادتهم عليها<sup>(٢)</sup> ..

\* \* \*

وإذا كان بعض الباحثين قد حاول أن يربط بين الملحمة والتاريخ ربطا تاما

---

(١) Gregoire: *Autour de Digènes Akrites*; p. 288.

(٢) Gregoire:(H.): *L'Age Héroïque de Byzance; Méanges offerts a M. Ni- colas Iorga*; Paris 1933, p. 385.

ويتال أن البوليبيين كانوا متأثرين بقصيدة ماني الثائية. انظر:

فهنالك كذلك من يتحرز في ذلك مراعيًا الأخطا الكثيرة التي جعل منها الكاتب مادة لقصته. لقد اندمجت في الملحمة فئات ثلاث: مسلمون ومسيحيون وهراطقة. وكان نتيجة هذا الاندماج ميلاد البطل ديجنيس أكرتس. وعلى ذلك تنتفى دعوى أن الملحمة كانت في الأصل أرمنية، لأنها تمجد أبطال البوليصيين، إذ لو كان الأمر كذلك لا تضح لنا شيء من عقيدة البوليصيين في ثايا الملحمة، «اللهم إذا بلغ التفاؤل بالقارىء إلى حد القول بأن كلمة ديجنيس ترمز إلى العقيدة الثنائية»<sup>(١)</sup>. وكذلك من الصعب أن ندعى أن الملحمة نقلت من أصلها الأرمني إلى البيزنطيين، وأن المؤلف الجديد لها قد حورها إلى ما فيه دعاية للدولة البيزنطية التي كانت تطمع في أن تقضى على الخارجين عليها وعلى أعدائها المهديين لممتلكاتها، وأن تعيد امبراطوريتها التي سلمت منها في منطقة الفرات، إذ لو كان الأمر كذلك لظهر نوع من العداء للبوليصيين في الملحمة. وقد رأينا أن الأمر كان على العكس من ذلك، إذ أن الملحمة تمجد أبطال البوليصيين وتجعل منهم أجدادا لبطلها. «ولم يبق بعد ذلك سوى أن نقر بالحقيقة، وهي أن مؤلف الملحمة - كما هي عليه في صورتها الحالية - يدهشنا بإنصافه البوليصيين والمسيحيين الأرثوذكس بمقدار ما يدهشنا بإنصافه المسلمين والمسيحيين. هذا إذا لم يكن موقفه ذاك يرجع إلى الجهل أكثر منه إلى الإنصاف»<sup>(٢)</sup>.

إن مؤلف الملحمة لم يكن يهدف إلى الدعاية لأى جانب، وإنما أراد أن يصور بخياله بعض المعارك التي سبقت عصره. ولو كانت هناك أفكار

Runciman: The Medieval Manichée, p. 49.

(١)

Mavrogardato: op. cit. p. LXV.

(٢)

سياسية أخرى تسيطر على المؤلف أكثر من أنه كان يفضل السلم لاستطاع أن ينوه بأن البوليبيين قد استخدمتهم الامبراطورية لإخضاع العرب أو تحويلهم إلى صفهم. مثل هذه الأفكار كان لابد أن يعبر عنها المؤلف بوضوح أو أنه كان يمتلكها<sup>(١)</sup>.

وهكذا عارض مافروجورداتو كلا من الباحثين جريجوار وأدنز من حيث أن الأول يرى أن الملحمة تحمل في ثناياها الدعاية للدولة البيزنطية وأن الثاني يرى أنها كانت ملحمة أرمنية في الأصل ثم نقلت إلى البيزنطيين.

ومع إيمانه العميق بقيمة التحقق التاريخي الذي بذله من سبقه في بحث الملحمة، عارض الإلحاح والإغراق في هذا التحقيق. ومن ذلك ما فعله عندما حاول تفسير الربط بين شخصية القائد التاريخي «ديوجينيس» وبين شخصيته بطل الملحمة ديجنيس. فالصفة «ديجنيس» بمعنى المولد كانت مألوفة في القصص اليوناني وأدائها كما يقول الكاتب. هذا فضلا من أن الملحمة لم تؤلف حول قائد بعينه، وإنما ألفت حول شخصية بطل قصصي تبلورت فيه عواطف عصره الاجتماعية والسياسية معا<sup>(٢)</sup>.

إن البحث العميق في تفصيلات الملحمة بقصد إرجاعها إلى مصادرها من الحوادث التاريخية لا جدوى منه، بل إنه ربما عرض الباحث للتناقض والتورط في بعض الأخطاء. مثال ذلك ما تعرض له جريجوار حينما حاول

---

Ibid., P. LXVI . (١)

Mavrogardato: op. cit., p. LXXII . (٢)

أن يشخص أبطال الملحمة تاريخيا، فقد عرف «ملينتزس» أحد الذين حاربوا مع فليبايوس ضد ديجنيس بأنه القائد الأرمني «ميلاس» الذى حارب مع القائد البيزنطى كوركاس فى منطقة الفرات سنة ٩٣٨م<sup>(١)</sup>. هذا فى حين يعرف فليبايوس بأنه أحد ملوك الكومجين الذى توفى فى أوائل القرن الثانى الميلادى..

إن البحث التاريخى يتحتم حينما نحتاج إليه لتحديد زمن كتابة الملحمة مثلا. ولذلك تساءل الباحث عن اللقب «بازل» الذى خلعه الامبراطور على ديجنيس حينما زاره فى قصره على نهر الفرات.. هل تشير الملحمة بذلك إلى الامبراطور بازل الأول أم الثانى، وهنا يجيب مافروجورداتو بأن المقصود هو بازل الثانى الذى توفى عام ١٠٢٥م، ففى عهده استرد البيزنطيون سلطتهم التى كانت قد سلبت منهم ستين طويلة فى منطقة الفرات<sup>(٢)</sup>.

وبعد ذلك لاتسرد علينا ملحمة ديجنيس حوادث تاريخية، وإنما تعرض أمامنا صورا من التاريخ قد نسقها مؤلف الملحمة بخياله حتى يصور لنا الصراع الذى كان على الحدود الشرقية<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

---

Ibid., P. LXXIII. (١)

Ibid., p. L XXIV. (٢)

Ibid., p. L. XXIII. (٣)

بقى الآن أن نشير إلى البحث الذي كتبه الأستاذ كرياكيدس للمؤتمر البيزنطي الذي عقد في سبتمبر سنة ١٩٥٨ بشأن ملحمة ديجنيس أكرتس. فقد استهل بحثه هذا بعبارة تفصح عن رأيه في مشكلة صلة الملحمة بالتاريخ من حيث قبوله للمبدأ الذي يدعو إلى البحث في الأصل التاريخي للملحمة. يقول: «إنني قبل أن أتعرض لتفصيلات الموضوع أتقدم برأى مبينا أن الملحمة في ملامحها العامة لا تثير مشكلات كثيرة. هذا فضلاً على أنها تتضمن أسماء أشخاص سبق أن دون التاريخ أعمالهم» ثم أخذ يتحدث عن ديجنيس فأقر في تردد رأى جويجوار الذي يربط فيه بين ديجنيس وديوجينس البطل البيزنطي الذي قتل سنة ٧٨٨م في الحوادث الشرقية كما ذكرنا. هذا وإن كان الأستاذ كرياكيدس لم يستطع أن يقطع بأن الصفة ديجنيس يمكن أن تشتق لغويًا من ديوجينس<sup>(١)</sup>..

وعلى كل فقد رأى الكاتب أنه من الأفضل أن يبدأ بالبحث عن أجداد البطل، إذ كان البدء بتحقيق شخصية ديجنيس تاريخيًا من الصعوبة بمكان. وهذا يشير إلى ما أشار إليه من سبقه من الباحثين من أن خريزوشير الزعيم البوليصي إنما هو خريزوفيرجس جد ديجنيس لأبيه، وأن عمر الملطي هو أمبرون جده لأمه. هذه الشخصيات التاريخية تجعله يجزم بأن الملحمة قد كتبت فيما بين سنة ٨٦٣م، وهي السنة التي قتل فيها عمر الملطي وبين سنة ٩٣٤م، وهي السنة التي استولى فيها نقفور فوكاس على ملطية

---

Kyriakidis (St.): Forschungsbericht zum Akritas - Eops; Berichte (١) zum XI interantionalen Byzantinisten Kongrress, Munchen 1958, S. 12.

وسومسطة، وبدأت فيها قبيلة بنى حبيب المسيحية تتدفق فى الأراضى البيزنطية. ودليل الكاتب على هذا أن الملحمة تشير إلى ارتداد أم موصور عن الإسلام وهجرتها بلاد الإسلام إلى الأراضى البيزنطية<sup>(١)</sup>. أما ما أشار إليه جويجوار من أن الملحمة قد كتبت بعد سنة ٩٤٤م فهذا ما يعارضه الأستاذ كريكيدس. وحجة الأستاذ جريجوار فى ذلك هى أن أديسا كانت قد سقطت فى تلك السنة وتسلم البيزنطيون الأثر المسيحى المقدس الذى يتمثل فى صورة المسيح وقد طبعت فى منشفته. وهو يرد على ذلك بأن أم موصور تتحدث بأن ذلك الأثر المسيحى كان ما يزال بأيدي المسلمين<sup>(٢)</sup>.

وخلاصة رأى كريكيدس أن الشاعر «مؤلف الملحمة» كان يهدف إلى كتابة تاريخ حياة أبطال عاشوا فى التاريخ والواقع، ولكنه شاء أن يستخدم فى ذلك أسلوب قصة قديمة معروفة لديه<sup>(٣)</sup>. أما السبب الذى دعاه لأن يكتب تاريخ حياة هؤلاء الأبطال فى تلك الصورة القصصية المنسقة فهذا ما لم يذكره الأستاذ كريكيدس..

وبهذا نكون قد فرغنا من عرض الآراء المختلفة فى علاقة الملحمة بالتاريخ. ويمكننا الآن أن نلاحظ أن هذه الآراء تسير فى اتجاهين.. بعضها يحاول أن يجعل من كاتب الملحمة مؤرخاً أكثر منه قاصداً. ولهذا بحث أصحاب هذا الرأى - ونشير بخاصة إلى ساتاس وليجران وجريجوار - عن

Kyriakidis: op. cit., S. 20.

(١)

Ibid., S. 21.

(٢)

Ibid., S. 27.

(٣)

كل إشارة بالملحمة يمكن أن يهتدوا بها للوصول إلى ملامح تاريخية من شأنها أن تلقى بعض الضوء على الأسماء والأحداث.. والبعض الآخر - ويمثله مافروجورداتوا - يقف عند الطرف المقابل فيذهب إلى أن مؤلف الملحمة كان قاصا رومنتيكيا، وأنه لم يكن متقيدا على الإطلاق بحوادث تاريخية أو بفكرة سياسية، وإنما كان يعيش في غمار عصره ويشهد الأحداث، وأنه استطاع أن يمزج ما وعاه ذهنه من الأحداث المعاصرة له وغير المعاصرة، هادفا من وراء ذلك إلى الوصول إلى غايته وهي إشاعة السلام في منطقة طالما نشبت فيها الحروب.

ونحن نرى أن كلا الاتجاهين متطرف. فالإسراف في تفسير كل إشارة في الملحمة بما يوازئها أو يشبهها من قريب أو بعيد بحوادث التاريخ أمر مجهد للغاية، فضلا عن أنه قد يؤدي إلى نتائج غير مجدية كما رأينا. وكذلك القول بأن مؤلف ملحمة لم يضع نصب عينيه أحداثا وشخصيات بعينها قول فيه بعض الإسراف، فلا يمكن أن نتصور أن مؤلف الملحمة قد ربط بين الحوادث والشخصيات التي ذكرناها في ذلك النسق اعتبارا.

أما الهدف الذي ترمى إليه الملحمة فقد شرحه البعض بأنه إشاعة السلام، وشرحه البعض الآخر بأنه تعبير عن الزهو باستقرار الأمر للامبراطورية البيزنطية مرة أخرى في منطقة الفرات. فهل أراد مؤلف القصة حقا أن يشيع فكرة السلام في منطقة طالما سالت فيها الدماء، وأنه لذلك قد جعل الأجناس المتنازعة في تلك المنطقة.. أعنى العرب والبيزنطيين والأرمينيين - تتحد في شخصية بطل واحد هو ديجنيس الذي استقر كالأسد الرابض على شاطئ

الفرات ليحفظ السلام والهدوء في المنطقة؟ إذا كان المؤلف قد أراد ذلك  
حقاً فإننا نسأل عن القوة التي استطاعت أن تشيع الهدوء في المنطقة،  
أكانت قوة عربية أم بيزنطية أم كانت القوة الخارجية على الدولة البيزنطية؟.

لا يمكن أن يكون المؤلف قد تخيل أن تلك القوى المختلفة المتصارعة قد  
تداخل بعضها في البعض الآخر تماماً، وأنه لم تعد هناك وجوه خلاف بينها  
وأن الجميع صاروا تسودهم قوة واحدة يصعب تمييزها، إذ هي مزيج من  
العربية والبوليصة والبيزنطية على حد سواء..

أما أن يكون المؤلف قد أراد الزهو بانتصار البيزنطيين على أعدائهم، فلم  
يكن هناك ما يدفعه لأن يجعل ذلك النصر يتم على يد بطل يكاد يكون  
غريباً عن الدولة البيزنطية والشعب البيزنطي..

إن تفسير هدف الملحمة يرتبط ولا شك بتفسير اندماج الأجناس الثلاثة  
في نسب ديجنيس. وهذا لم يأت اعتباراً كما ذكرنا - بل لقد فكر فيه  
مؤلف الملحمة عن عمد قبل أن يشرع في كتابة ملحمة. ولكننا سترجيء  
رأينا في هذا الصدد حتى نفرغ من مناقشة ما في تفسير الروح الإسلامي  
العربي الذي يبرز في الملحمة.

\* \* \*

## (ج) الروح الإسلامى العربى فى الملحمة

رأينا أن ساتاس وليجران قد تجنبا الحديث عن الجانب العربى الإسلامى فى الملحمة إلا ما يشير إلى أن أمبرون هو عمر بن عبيد الله الأقطع أمير ملطية، فلقد ركز جهدهما فى محاولة إثبات أن الملحمة بيزنطية الأصل ولا أساس لمؤثرات خارجية فيها. وقد دعاهما ذلك إلى إطالة الحديث عن البطولية البيزنطية التى صورها مؤلف الملحمة فى أسرة دوكاس التى اشتهرت ببطولته أفرادها ونزاهتهم وسعيهم وراء مصلحة الوطن..

وكذلك شغل أدونز بالبحث عن الأصل الأرمينى للملحمة - شغل به عن التفكير فى العنصر العربى الإسلامى، ولم يشر إلا إلى أن الأسماء العربية قد ذكرت بالملحمة لما كان لأصحابها من صلة بحوادث البوليصيين. أما الملحمة فقد نشأت أصلا فى بيئة أرمينية ثم انتقلت إلى البيئة البيزنطية بعد أن تمكن مؤلفها الجديد من تحويرها بما يتفق والسياسة البيزنطية<sup>(١)</sup>.

ولكن إذا كان ساتاس وليجران قد نظرا إلى الملحمة من زاوية بيزنطية صرف، وإذا كان أدونز قد نظرا إليها من زاوية أرمينية، فإن جريجوار قد نظر إلى الملحمة من زاوية عربية بيزنطية. فالجزء الأول من الملحمة الذى يتحدث عن الأمير العربى موصور: عن بطولته وزواجه من ابنة القائد البيزنطى ثم ارتداده عن الإسلام، هذا الجزء الأول من الملحمة الذى انتهى بميلاد البطل ديجينيس إنما يشير - فى رأى جويجوار - إلى تأثير ملحمة عربية فى الملحمة البيزنطية<sup>(٢)</sup>.. ولكن ما حقيقة هذه الملحمة العربية وما

Adontz: op. cit., p. 215.

(١)

Gregoire (H.) et Goossens (Roger): Byzantinisches Epos und arabischer Ritterroman; Zeitschrift der deutschen morgenlandischen Gesellschaft - Leipzig 1934, S. 220.

نواحى تأثيرها فى الملحمة البيزنطية؟ أما هذه الملحمة العربية - التى لا وجود لها اليوم - فهى تلك التى دارت على ألسنة الشعب العربى المجاهد فى منطقة الثغور تمجيدا لبطلهم الأول عمر بن عبيد الله الملقب ..

هذه الحقيقة يجزم بها جريجوار بعد أن رأى أن هذه الملحمة الملقية قد تركت أثرها واضحا فى القصص الشعبى العربى والبيزنطى على السواء. فسيرة ذات الهمة تحتفظ باسم البطل الملقب لأن أنكرت بطولته، وكذلك تصنع قصة عمر النعمان<sup>(١)</sup>. على أنه إذا كان القصص العربى لم يبرز بطولة بطل الثغور عمر الملقب فإن الملحمة البيزنطية قد أبرزت ذلك فظهر اسم عمر مشرقا فى الجزء الأول من الملحمة.

وهنا ينبغى أن تساءل: ما الدافع الذى دعا الشاعر البيزنطى إلى تخليد ذكرى عدو بلاده الأكبر؟ ويجب على ذلك جريجوار بأن ملحمة عمر الملقب التى افترض أنها عاشت بين سكان منطقة الثغور قد انتقلت إلى البيزنطيين، وأن مؤلف الملحمة البيزنطية شاء أن يحتفظ ببعض حوادثها جنبا إلى جنب مع قصة البطولة البيزنطية التى تتمثل فى ديجينيس<sup>(٢)</sup> ..

وعلى هذا تتألف الملحمة البيزنطية من جزئين: جزء مصدره عربى بحت، والجزء الآخر بيزنطى. أما الجزء العربى فهو الذى يمجّد بطولة عمر ابن عبيد الله وولده، وأما الجزء البيزنطى فهو الذى يمجّد بطولة «ديوجينيس»

---

(١) يرجع جريجوار أن حكاية عمر النعمان تجنبت ذكر الأسماء التاريخية. وليس بعيد أن يكون عمر النعمان هو عمر بن عبيد الله.

Ibid, S. 222.

Gregoire: les recherches recents sur l'epopée Byzantine, S. 428. (٢)

الذى سقط فى معارك سنة ٧٣٣م فى إقليم قبادوقيا. وقد ظلت قصتنا الأبطال الثلاثة تعيشان بين سكان الثغور العربية والبيزنطية حتى جاء العصر الذى انتقم فيه البيزنطيون من العرب حينما استردوا منهم منطقة الفرات. وحين ألف الشاعر ملحمة حول هذا النصر استفاد من القصتين. ومن أجل ذلك ظهر الروح العربى واضحا فى الجزء الأول من الملحمة، كما ظهر الروح البيزنطى جليا فى جزءها الثانى. وقد استطاع الشاعر أن يربط بين الجزئين بأن جعل الأمير العربى يعلن ارتداده عن الدين الإسلامى بعد زواجه من ابنة القائد البيزنطى. وقد كان ثمره هذا الزواج البطل «ديجنيس أكبريس»..

لقد خصص الأستاذ جريجوار ومن تبعه من تلاميذه - ونخص منهم بالذكر «جوسون» - الجانب الأكبر من أبحاثه لدراسة بعض عوامل التأثير العربية فى الأدب البيزنطى. وقد كانوا يستعينون فى ذلك بأبحاث المستشرق ماريوس كنار فى الآداب الشعبية العربية. وسنشير فى الجزء الخاص بالمقارنة من هذا البحث إلى الآراء المختلفة فى هذا التأثير.

ونحن إذ نشكر للأستاذ جويجوار التفاته للمظهر الإسلامى فى الملحمة نعلن أن الملحمة فى صورتها الحالية ليست ولم تكن - جزئيا وإنما هى كل مكتمل. وإذا كان مؤلف الملحمة من سكان القبطاع الشرقى كما تدل على ذلك التحديدات الجغرافية فى الملحمة ذاتها - فإنه لا بد أنه كان يستمع إلى الأغاني والقصص العديدة التى تمجد الأبطال فى تلك المنطقة، ولا بد أنه قد تأثر بذلك، ولكنه حينما كتب ملحمة كان مشبعا بفكرة

خاصة به فعبّر عنها من خلال ذلك الاطار التاريخي الذى كان يعيه، والذى يربط فى نفسه الأحداث فى نسق خاص.

إن المنطقة التى وقعت فيها حوادث الملحمة واضحة ومحددة. منطقة انتزعت من أيدي البيزنطيين وظلت فى أيدي العرب زمنا طويلا. وفى هذه المنطقة كان يسكن الأرمن الذين لم يكونوا موالين للبيزنطيين موالاة تامة. وكان يسكن بها كذلك الخارجون على الدولة البيزنطية كالبوليصيين. فإذا أضفنا إلى هذين العنصرين العنصر العربى، تبين لنا كيف أن المنطقة التى اتخذت منها الملحمة موطنها كانت تحمل عداوات مختلفة للدولة البيزنطية. هذه العداوات المختلفة ظهرت واضحة فى الملحمة، بل أن ديجنيس البطل هو ثمرة هذه العداوات. كان خريزوفيرجس عدوا للدولة، وكان أمبرون - أى عمر الأقطع - كان مناوئا عنيدا لها، ثم كان أندرونيك دو كاس خارجا على الامبراطور، وقد لجأ إلى العرب وأعلن إسلامه وقضى بقية حياته بينهم. وكل هؤلاء انتسب إليهم ديجنيس. فلم يبق بعد ذلك إلا أن نعلن أن ديجنيس كان حفيدا لأعداء الدولة، أى أنه كان عدوا لها كذلك.

هذا الفرض الذى نفترضه تؤيده بعض الشواهد. وهى شواهد نقع على بعضها فى الملحمة ذاتها وتتمثل بعضها فى البيئة الأدبية البيزنطية التى كانت تتغنى بكفاح البيزنطيين مع العرب..

أما شواهد الملحمة فبالإضافة إلى ما ذكرناه، نشير إلى قول ديجنيس عندما استدعاه الامبراطور فى مقابله. لقد رد عليه ديجنيس قائلا: «إننى لا أعجز عن فعل شئ إذا أرادته الله، ولكنك إذا أردت أن تلقى خادمك الأمين فإن الطريق لن يستغرق منك أياما حتى تكون بجانب الفرات. فإن

شئت رؤيتي فستجدني بجانب شاطئه<sup>(١)</sup>. فمثل هذه اللهجة لا يمكن أن يتحدث بها سوى خارج على الامبراطور..

وهناك دليل آخر نستند إليه من نص الملحمة. فحينما توفى ديجنيس شهد جنازته ممثلو القطاعات الشرقية. وقد كان من بين الذين شهدوا الجنازة كبار رجال بغداد<sup>(٢)</sup> ونبلاء بابلون وآمد..

ونحن نتساءل: لماذا لم يشهد الجنازة وفود أخرى من القسطنطينية كذلك، وهي عاصمة الامبراطورية البيزنطية، إذا كان ديجنيس بطلا بيزنطيا خالصا؟ ثم لماذا شهد الجنازة كبار رجال بغداد إذا كان ديجنيس رمزا للبطولة البيزنطية التي حاربت العرب سنين طويلة؟

وهناك شاهد آخر تجده في قصة شعرية بيزنطية قصيرة. وهي إحدى القصص القصيرة التي تتغنى بحوادث الثغور. وبطل هذه القصة هو ديجنيس. وتحكى القصة أن ديجنيس حاول الزواج من فتاة بيزنطية. فرفضت أمها وأعلنت أنها لا يمكنها أن تزوجه ابنتها لأن أمه مسلمة وأباه يهودى. «وربما كان لفظ يهودى هنا إشارة إلى هرطقة خريزوفيرجس» وهذا يدلنا على أن الشعب البيزنطى لم يكن يتغنى بديجنيس بوصفه بطلا بيزنطيا..

لقد كان مؤلف الملحمة الأول مواطنا من القطاع الشرقى ولا شك كان شرقيا بعاداته وكان شرقيا حين عبر عن ظروف المنطقة التي عاش فيها فترة من فترات تاريخها الحاسمة. ولم يكن المؤلف شرقيا فحسب، بل كان شرقيا متعصبا حينما نسب بطله إلى مشاهير رجال الشرق وقد شاء المؤلف بذلك

(١) انظر الأبيات من ٢٠٧١ إلى ٢٠٧٤.

(٢) انظر الأبيات من ٣٧٤٣ إلى ٣٧٤٤.

أن يحفظ لرجال الشرق سلطانهم الكامل فى منطقتهم. ولقد تحقق ذلك على يد ديجنيس الذى كان ينتسب إلى عمر الأقطع، البطل العربى الذى وقف كالجبل الأشم فى وجه البيزنطيين فترة طويلة، وإلى خيرزوفيرجس الأرمينى الخارج على الدولة البيزنطية والذى سخر من بازل الأول حينما طلب منه الصلح فأجابه بقوله: «إذا كان الامبراطور يريد السلام فدعه يتنازل عن أطماعه فى الشرق ويتفرغ لأطماعه فى الغرب»، والذى كان ينتسب إلى أندرونيك دو كاس البيزنطى الأصل، الذى ضاق بسياسة بلاده فهرب إلى الشرق وأعلن إسلامه ومكث هناك إلى أن توفى..

ثم مرت الملحمة بمرحلة انتقال بعد ذلك حينما تناولها مؤلف شرقى كذلك كان يميل إلى السياسة البيزنطية فأضفى على القصة شيئا من ميوله البيزنطية والمسيحية ولكنه لم يستطع أن يتخلص من طابع القصة الأصلية. ومن يدرى، وربما كانت قصة موصور فى الأصل شيئا آخر، وأنه حينما سبى إينة الامبراطور أندرونيك وتزوج منها. لم يهجر بلاده إلى الأراضى البيزنطية حيث ارتد عن دينه الإسلامى، وإنما بقى فى بلاده وعلى دينه وتزوج من ابنة أندرونيك التى أنجبت ديجنيس. إذ ماذا يعنى أن يهجر موصور بلاده إلى الأراضى البيزنطية متكررا لدينه وأهله، ثم يعود ابنه ديجنيس فيهجر بلاد البيزنطيين ليستقر فى القطاع الشرقى حيث كان أبوه.

وعلى كل، فرغم التحوير الذى تعرضت له الملحمة، ظل طابع القصة الأصلية يضىء على الملحمة مسحة عربية إسلامية لا تخفى على باحث.

\*\*\*

## بعض الأغنيات الشعبية البيزنطية

### ٢- أنشودة عمورية :

وإذا كانت ملحمة ديجنيس قد خصت جند قبادوقيا بالذكر دون الأجناد الأخرى لما وقع فيه من حوادث ألهمت خيال الشاعر، فإن هناك بعض الأغاني التي تخص بالذكر أجنادا أخرى اشتركت في أحداث تاريخية خالدة. وهذه الأغاني تقتصر على عرض مشهد واحد من حياة أحد الأبطال، تماما كما رأينا في تلك القصص القصيرة التي كان الشعب يتغنى بها والتي افترض البعض أنها أصل ملحمة ديجنيس. غير أن هذه الأغاني تختلف عن تلك في أنها تستقل عن ملحمة ديجنيس بحوادثها وأبطالها..

ونعرض الآن لأنشودة عمورية. وتتغنى هذه الأنشودة بحوادث عمورية التي فتحها الخليفة المعتصم وخربها سنة ٨٣٨ حين علم أنها «عين المسيحية وأساسها»<sup>(١)</sup> وقد فعل ذلك انتقاما من تخريب تيوفيل لزبطرة سنة ٨٣٧م.

(١) فازيليف: العرب والروم. ص ١٢٤.

وتتلخص قصة هذه الأنشودة في أن أرموريوس الذى وقع ولده وأخوته فى أسر العرب، عزم على أن ينتقم من العرب ويخلص أهله من الأسر. ووقف أرموريوس على شاطئ الفرات يسرح النظر فى أمواجه المتضاربة وأحواله المتراكمة، وإذا به يجد فرسان العرب يقفون مدججين بالسلاح على الشاطئ الآخر من النهر وكلهم عيون يقظة خوفا من هجوم أعدائهم على أراضيهم. لكن أرموريوس لم يطل التأمل والتفكير، وإنما هتف بقوله: «شكرا لك يا إلهى بل ألف شكر. إنك منحتنى القوة وإنك على سلبها لقادر»<sup>(١)</sup>. فما كاد ينتهى من هتافه حتى سمع صوتا ملائكيا يقول له: «ثبت سيفك فى جذع النخلة، وعلق ملابسك على مقبض السيف ثم خز حصانك وأعبر النهر، وسوف تعبره فى لحظة إلى الشاطئ الآخر»<sup>(٢)</sup>. وفى لحظة كان البطل قرب الشاطئ فهتف بقوله للعرب الذين وقفوا له بالمرصاد: «سلحوا زنفسكم أيها الأعراب.. درعوا أنفسكم ولا تجملعوا الشك يتطرق إليكم فى أنتى سأعبر الفرات إليكم فإن أرموريوس يطل شجاع»<sup>(٣)</sup>.

رتزاحمت الأعراب على الشاطئ بقدر عدد النجوم وأوراق الشجر وردوا عليه قائلين: «هدىء من روعك يا أرموريوس وانتظر برهة.. ألا تسمع صوت الأبواق.. الأبواق الكبيرة؟ إن أسراك مقيدون فى مكان ما فى بابليون فامض إليهم إن استطعت»<sup>(٤)</sup>.

Gregoire: Autour de Uigénes Akritas; Byzantion 1932. p. 291. (١)

Gregoire: Loc. cit. (٢)

Ibid., p. 293. (٣)

Loc. cit. (٤)

ثم انطلقت أصوات الأبواق ودقت الطبول. وانتاب البطل الرعب، وأيقن أن لا سبيل إلى بلوغ مكان أسراه، لكنه استجمع قواه وهتف: «إن استطعتم أيها الأعراب أن تحولوا دون أرموريوس فهيا تقدموا. خذوه من حوض الماء حيث يستحم. خذوه وقودوه لولده ليراه أسيرا»<sup>(١)</sup>. وفي لحظة حمل الأعراب السيوف وانتزعوا البطل من الماء وحملوه إلى الأمير العربي. وقد كان استقبال الأمير للبطل البيزنطي على عكس ما كان يتوقعه الأخير إذ دعاه الأمير تناول الطعام معه ثم قال له: سأرجع يا أرموريوس إلى مكان أهلك وأطلق سراح ولدك. لقد اخترته زوجا لاحدى بناتنا. ولن تكون هذه ابنة عمى أو ابنة أختى ولكنها ابنتى. فإذا ولد له ولد فسأجعله يتعلم كيف يحب العرب ويقتسم ما يغممه بينه وبينهم وكيف يعيش فى سلام معهم»<sup>(٢)</sup>.

وقد رأى جريجوار أن الأسماء التى أطلقت على هذا البطل، وهى مرة أرموريوس ومرة أموريس، وثالثة أرموريولوجى - إنما هى تحريف لاسم عمورية. وقد خلع الشاعر هذا الاسم على البطل تمجيذا للأسرة العمودية التى انتهت حكمها بوفاة ميخائيل الثالث<sup>(٣)</sup>. ولكننا نرى أنه رغم التصريح فى هذه الأنشودة بالعداء بين العرب والبيزنطيين ورغم ذلك التحفز والتحرش بين الفريقين الرابضين على شاطئ الفرات، كان الشاعر مشعبا بفكرة السلام كما هو الحال فى ملحمة ديجنيس. وهو لم يشأ أن يجعل السلام

Gregoire: op. cit., p. 293.

(١)

Loc. cit.

(٢)

Gregoire: Nouvelles Chansons Epiques des IXe et Xe siecles: Byzantion 1939, XIV 242.

يسود على يد شخص بيزنطى صرف أو عربى خالص، لكنه شاء أن يكون ذلك على يد بطل آخر مولد يحب العرب وينشر معهم لواء السلام.

إن هذه الأنشودة نفحة أخرى من نفحات شاعر شعبي عاش بين العرب وأحبهم وأراد أن يندمج فيهم حتى يشيع السلام في المنطقة المشتعلة بالدماء.

\*\*\*

### ٣- أنشودة خرزانييس

والى جانب ملحمة ديجنيس وأنشودة عمورية نجد أنشودة خرزانييس، وخرزانييس إشارة إلى اسم جند خرزانيون كما يرى البعض<sup>(١)</sup>. وإذا كانت هذه الأنشودة لم تتفن بحوادث القتال بين العرب والبيزنطيين فإنها لم تخل من نفحة من نفحات الشرق. على أننا لا نذكر هذه الأنشودة للنفحة الشرقية التي تشيع فيها فحسب، ولكن لأنها تتفق مع قصتنا العربية الشعبية «عمر النعمان» فى أكثر من وجه. وسنشير إلى ذلك فى موضعه من البحث.

وتحكى قصة هذه الأنشودة أن خرزانييس أحب فتاة وإن لم يتحدث إليها على الإطلاق. لذلك راح ينفق المال والذهب عند بابها ولكنها لم تمنحه كلمة حب. وذات يوم بينما كانت خارجة للاستحمام التقى بها فى الطريق وشها حبه. وعاد إلى أمه مسرورا وطلب منها أن تعينه على الزواج من فتاته. ولم تعارض الأم رغبته بل طلبت منه أن يتزوج منها زواجا دينيا.

(١) Gregoire: Echanges Epiques Arabo - Grecs; Byzantion 1932, VII

378 وملخص القصة مستمد من الترجمة الفرنسية لجريجوار..

واستعدت القساوسة لإتمام مراسم الزواج ثم حملت الخمر وقطع الذهب إلى الفتاة، ودخلت الفتاة لمقابلة الرسل الموفدين من قبل خزرانيس، والذين قدموا لها الخمر والذهب. فما كان منها إلا أن سكبت الخمر وبعثت النقود وقالت لهم: «إننى لا أريده زوجا لى بل لا أريد أن أراه جارا لى». وخرج الجميع يتعثرون من الخزى. ولكنهم قبل أن يهبطوا فى درجات السلم قالت لهم: «إن لى مطالب ثلاثة فهل يستطيع القيام بها؟ اننى أطلب منه أن يهشم الصخر وأن يقلم النخل وأن يحتضن الريح وأن يحزم البيض فى حزمة واحدة وأن يبذر القمح والشعير فى البحر فيكبر، فإن هو استطاع ذلك كان الله قد بعث إلى بأفقر عبد لى أتزوج منه»<sup>(١)</sup>.

ثم نزل الجميع وكان خزرانيس ينتظرهم أمام الباب، فحكوا له ما حدث فحزن واكتأب ونزل توا ليعد حصانه للرحيل، فإذا بحصانه يحدثه ويسدى إليه النصيحة. لقد دعاه إلى أن يتنكر فى زى فتاة بعد أن يحلق شاربه، ثم يذهب إلى الفتاة ويتحدث معها ويخبرها أن صلة نسب ترتبط بينهما. فإذا ما فتحت له الفتاة بابها تودد إليها وشرح لها ما يعانیه من فقر، وعندئذ سترق له الفتاة وتدعوه للمبيت لديها، وبذلك يستطيع أن يفض بكارتها، وحينئذ تقبل الزواج منه.

وصنع خزرانيس ما أشار عليه به حصانه، ودخل إلى الفتاة وأعطاها مخدرا وقضى ليلته معها. وفى الصباح استيقظت الفتاة مذعورا من رؤيا رأتها. رأت كأنها تقف وسط الحشائش تحمل وريدا حمراء وإذا بسيف يسقط

Gregoire: op. cit., p. 372.

(١)

من السماء ويستقر بجانبها. وأخذ خزرانيس يؤول لها الرؤيا ويشرح لها أن  
الورود ترمز لبكارتها وأن السيف يرمز لخزرانيس الذى أحبها..

وتبين الفتاة ما حدث لها وتغضب وتذهب تشكو إلى ملك بابلون أحد  
جنوده قد فض بكارتها. ويذعر الملك ويطلب منها أن تصف له ذلك  
الجندى فتخبره الفتاة أنه طويل كالسرو ونحيف كالشمعة. ويعرف الملك  
من ذلك الوصف أنه خزرانيس فيأمر باستدعائه. ويقابل خزرانيس الملك فى  
هدوء وكبرياء كأن شيئا لم يحدث. ويطلب منه الملك أن يتزوج الفتاة وإلا  
تزوجها الملك نفسه، فيرد عليه خزرانيس قائلا: «إنتى أعيش حرا، أنام على  
الأشجار وأكل ما تشتهى نفسى من الفاكهة. لقد كنت حرا عندما قبلت  
الفتاة وأنا الآن حر فى أن أتزوجها. إنتى أقرر إنتى لن أتزوج الفتاة بل  
سأتركها لك»<sup>(١)</sup>..

وحينئذ رحل الملك والفتاة وحاشيته حتى وصلوا بابلون وهناك تزوج  
الملك من الفتاة..

هذه هى أشهر الأشعار الشعبية التى تغنت بالشرق والمتنازع عليه من  
العرب المسلمين والبيزنطيين المسيحيين دهورا طويلة. واننا بعد أن عرضنا  
للانتاج القصص الشعبى لدى هؤلاء وهؤلاء، ذلك الانتاج الذى ارتبط  
خاصة بذلك النزاع، نمضى لعقد المقارنات فى هذا النتاج المحلى لدى  
الشعبين لرى إلى أى حد كان التأثير والتأثير متبادلا بينهما وإلى أى حد  
كانت الدوافع النفسية لانتاج هذا التراث الشعبى متفقة أو مختلفة بين  
الشعبين..

\* \* \*